

فلاسفة العرب

٤

الغزالي

الجزء الاول

منشورات المطبعة الكاثوليكية - بيروت

الأب يوحنّا قمير

أستاذ الفلسفة العربية في جامعة القديس يوسف

الغزالي

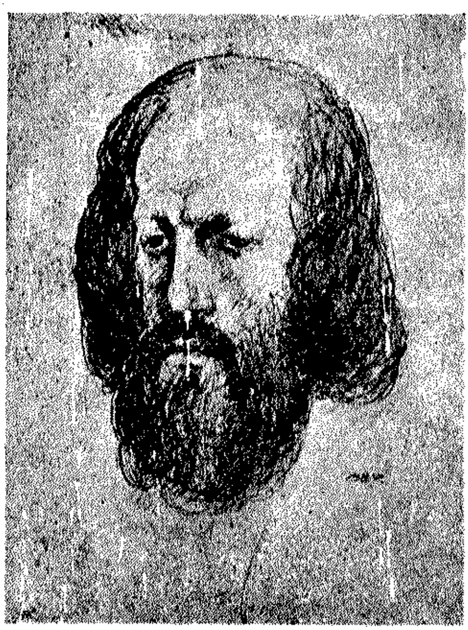
دراسة - مختارات

طبعة ثالثة منقحة

الجزء الاول

منشورات المطبعة الكاثوليكية

بيروت



الغزالي

الغزالي

١٠٥٩ – ١١١١ م   ٤٥٠ – ٥٠٥ هـ

ترجمة

في غزالة ، وهي قرية من اعمال طوس ، احدى مدن خراسان ، ولد ابو حامد محمد ... حجة الاسلام ، واليها انتسب [1].

وكان ابوه فقيرًا يعيش من غزل الصوف ، وكان محبًّا للعلم يحضر مجالس الفقهاء والوعاظ ، ويتمنى على الله ان يرزقه بنين كهؤلاء . ورزقه الله ما اشتهى ، فكان له محمد هذا ، اشهر فقهاء عصره ، واحمد اخوه ، وكان واعظاً يزدحم عليه الناس .

وبلي الغزالي باليتم ، ففقد اباه صبيًّا . ويتم بعضهم نعمة ، لانه اعتاد على النفس ، وسير الى غير آفاق .

ويتم الغزالي وضعه في رعاية وصي صوفي . ورعى هـذا الصوفي صداقة الوالد ، فاعتنى بالصبي جسدًا وروحاً ، والقى فيه بذورًا طيبة ، سوف تنبت غرساً يانعاً ، وتتفتق براعم وازرارًا .

على ان هذا الصوفي كان ضيّق الحال ، وما خلّفه الوالد من مال

---

١) قال ابو سعد عبد الكريم السمعاني – وقد ولد في طوس نفسها ، بعد وفاة الغزالي بسنتين ، وكتب كتابًا شهيرًا في الالقاب – ان اسم الغزالي مشتق من غزالة ، وهي قرية قريبة من طوس . واننا نعرف رجـلا آخر بهذا الاسم ، يدعى الغزالي الاكبر ، ربما كان عمّ الغزالي هذا او جدّه . واذًا زاي الغزالي مخففة ، ولم يلقب بهذا الاسم لان اباه كان يغزل الصوف ، ناهيك عن ان غازل الصوف يدعى غزّالًا لا غزّاليًّا .

كان نزرًا يسيرًا ، فاجأ الولد الى مدرسة خيرية ، يلقن فيهــا العلم ، وينال القوت . ولسنا ندري في اي عمر ترك وصيه الصوفي ، ولا كم اقام في مدرسته تلك .

على انا نعلم — ونعلم من الغزالي نفسه — انه كان يحس ، منذ صباه ، بفضول عقلي غريب ، يدفعه الى التهجم على كل مشكلة ، والتفحص عن عقيدة كل فرقة . وان هذا الفضول لثقة بالنفس ، وقلق في العقل ، وسر كل مفاجأة .

وانه هذا التطلع العقلي قــاد الغزالي الى نيسابور ، الى مدرستها النظامية ، حيث كان يدرس امام الحرمين ، ضياء الدين الجويني .

واخذ الغزالي عن استاذه الفقه والمنطق ، واخذ عنه جرأة في النظر ، وخروجاً عن مسالك التقليد . وكان الغزالي تلميذًا متفوقاً ، وكان تفوقه يدفعه الى العجب بالنفس ، وكان امام الحرمين يتمعض لذلك . على ان الاستاذ كان افطن من ان يتجاهل ذكاء تلميذه ، او يظهر الغيرة منه ، بل كان يتبجح به في الظاهر ، ويقول عنه اذا وصفه : « الغزالي بحر مغدِق . » ويموت امام الحرمين سنة ٤٧٨هـ=١٠٨٥م ، ويرى الغزالي نفسه ضائعاً وحيداً .

على انه قد اصبح شاباً ، وشاباً ناضجاً ، له من العلم ما يجابه به الاعلام ، ومن الفصاحة والذكاء ما لا يحده طموح .

وكان في العراق وزير سلجوقي كبير ، غيور على العلم واهله ، غيور على اهل الصلاح ، يعاتبه سلطانه ملكشاه على ما ينفقه في سبيل المدارس ، فيجيبه من كتاب : « انا اقمت لك جيشاً يسمّى جيش الليل ، اذا نامت جيوشك ليلًا ، قامت جيوش الليل على اقدامهم ، صفوفاً بين يدي ربهم ، فارسلوا دموعهم ، واطلقوا السنتهم ، ومدّوا الى الله اكفهم بالدعاء لك ولجيوشك . فانت وجيوشك في خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم تبيتون ، وببركاتهم تمطرون وترزقون . »

واتى الغزالي نظام الملك هذا ، واختلط باهل العلم من مجلسه ، واظهر في مناظرة الأئمة تفوقاً وبراعة . وظلّ في ظل نظام الملك اعواماً ستة ، يريه فصاحة وبلاغة ، ويريه مودة واخلاصاً ، حتى ارسله استاذاً الى مدرسة بغداد النظامية ، سنة ٤٨٤هـ = ١٠٩١م.

وكانت المدارس النظامية تلك وسيلة لتأييد السنة ونفوذ السلاجقة ، كما كان الازهر في مصر وسيلة لتأييد الشيعة ونفوذ الفاطميين . واذاً كان على الغزالي ان يناصر السلطان القائم ضد كل دعوة علوية ، وان يدافع عن اراء اهل السنة ضد المبتدعة .

وعلّم الغزالي في بغداد مدة اربع سنوات، مرّ اثناءها بحالات نفسيّة عنيفة ، سنأتي على ذكرها . وقد انتهى به الامر الى ترك التدريس في بغداد ، والتجول من بلاد الى بلاد . قال الغزالي في اماكن من المنقذ:

« ففارقت بغداد . . . ثم دخلت الشام ، واقمت به قريباً من سنتين ، لا شغل لي الا العزلة والخلوة . . . فكنت اعتكف مدة في مسجد دمشق ، اصعد منارة المسجد كل النهار ، واغلق بابها على نفسي .

« ثم تحركت فيّ داعية الحج . . . فسرت الى الحجاز .

« ثم جذبتني الهمم ، ودعوات الاطفال الى الوطن ، فعاودته بعد ان كنت ابعد الخلق عن الرجوع اليه . فآثرت العزلة ايضاً ، حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر . وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعاش ، تغير فيّ وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة . وكان لا يصفو الحال الا في اوقات متفرقة ، لكني مع ذلك لا اقطع طمعي منها ، فتدفعني عنها العوائق ، واعود اليها . . .

« ثم اني لما واظبت على العزلة والخلوة ، قريباً من عشر سنين . . . قدّر الله تعالى ان حرّك داعية سلطان الوقت من نفسه ، لا بتحريك من خارج ، فامر امر الزام بالنهوض الى نيسابور . . . وبلغ الالزام حداً

كان ينتهي ، لو اصررت على الخلاف ، الى حد الوحشة[1] . . .

« وبسر الله الحركة الى نيسابور ، للقيام بهذا المهم ، في ذي القعدة سنة تسع وتسعين واربعمئة. وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين واربعمئة . »

يقصّ علينا الغزالي هذه القصة ، وهو استاذ في نيسابور ، « وقد اناف السنّ على الخمسين » ، اي بعد سنة ٥٠٠ھ = ١١٠٦ م . ولا نظنه كتب المنقذ بعد هذه السنة بكثير ، ولا انه درس طويلًا بعد كتابة المنقذ ، لانّا نعلم انه توفي سنة ٥٠٥ھ ، وانه عاد الى طوس في اواخر حياته ، واتخذ الى جانب داره مدرسة للفقهاء، وخانقاه للصوفية . ولعل مصرع فخر الملك ، سنة ٥٠٠ھ ، قد عجل في تركه التدريس في نيسابور ، ولعله اعتزل نهائياً سنة ٥٠١ او ٥٠٢ على ابعد تقدير .

ه

بقي ان نلم الماماً بنفسية الغزالي .

لقد كان الغزالي عقلًا ذكيًا ، وقد ادرك من نفسه تلك الهبة ، فاذا به كثير التطلع ، جم الفضول ، يتهجم على كل مسألة ، ويجادل في كل معضلة ، يطالع كل كتاب ، ويصنف في كل عقيدة ، وما اكثر ما طالع الغزالي والّف ، وما اكثر ما ناظر وبزّ الاقران .

وقد ادّى ذلك بالغزالي الى المباهـاة بذكائه ، والعجب بالنفس . الا تراه ينظر الى شبهات عصره ، وضلالات زمانه ، فيجد افضاحها

---

١) ان هذا السلطان هو سنجر ، الذي ولي خراسان ، نيابة عن اخيه بركياروق ، سنة ٤٩٠ ھ = ١٠٩٦ م . وجاء في طبقات الشافعية الكبرى ان فخر الملك ، وزير سنجر ، وابن نظام الملك ، هو الذي دعا الغزالي الى التدريس ، « والح عليه كل الالحاح ، وشدّد في الاقتراح ، الى ان اجاب . » ومن الطبيعي ان يلح ابن نظام الملك على صديق ابيه ، وقد الحّ باسم السلطان .

ايسر من شربة ماء.[1] ؟ ألا يحدثنا ، حين يحدثنا عن تركه التدريس في بغداد ، عن الحاح الولاة عليه بالبقاء ، ولوم أئمة العراق له ، وعن تعليل ذلك بقولهم : « هذا امر سماوي ، وليس له سبب الا عين اصابت اهل الاسلام ، وزمرة العلم[2] ؟ ثم الا يعود الى التدريس في نيسابور ، لان سلطاناً الح ، وارباب قلوب نصحوا ، وصالحين رأوا منامات ، والهاً وعد « باحياء دينه على رأس كل مئة.[3] » ؟

هو الشعور بذكائه ، وهي شهرة صلاحه ، دفعاه الى ان يباهي ، وان ينشر ما يؤثر الحياء طيّه . على انك قد تلطف من دهشتك ، اذا علمت ان صالحين كثيرين باهوا بما باهى بـه الغزالي ، وانه دائب على اصلاح نفسه ، ناسب الى الله كل فضل ، مؤمن ان لا حول ولا قوة الا به : « اني لم اتحرك ، ولكنه حركني ، واني لم اعمل ، ولكنه استعملني ، فاسأله ان يصلحني اولاً ، ثم يصلح بي ويهديني.»[4]

وان اهل عصره رأوا فيه ما رأى في نفسه ، فرثاه الابيوردي من قصيدة :

مضى ، واعظم مفقود فجعت به من لا نظير له في الناس يخلفه !

---

١) المختارات : ص ٤٨
٢) المختارات : ص ٤٣
٣) المختارات : ص ٤٩
٤) المختارات : ص ٥٠

اراؤه

الغزالي شخصية غنية الروح ، واسعة الاطلاع ، كثيرة الانتاج ، متشعبة المناحي .

وحياة الغزالي شطران متباينان من وجوه، مشتركان في اشياء ، يفصلهما انقلاب عميق ، واهتداء الى التصوف .

وعقل الغزالي كثير التطلع ، نفور من الانقياد ، نزوع الى اليقين ، عرضة للحيرة والقلق ، هدف لكل مهالك الذكاء .

واذاً ليس من اليسير ان تجمع ما تبدد ، وتلاءم ما تشعَّب ، ان تتبين ما تبدل ولا تذهل عما استمر ، ان تتبع تطور الفكرة وتجد حلاً للمتناقضات .

وانّا قد رأينا ان نتخذ كتاب المنقذ اساساً ، فنعرض تطور فكرة الغزالي كما عرضها هو لنا ، ثم ننقد هذه الرواية مظهرين ما فيها من وهن ومن تناقض ، وننتهي برأي يشرح لنا كتاب المنقذ ، بل قد يشرح باقي كتبه ايضاً .

١ – رواية المنقذ

اديان ومذاهب وتقليد : الشك في الايمان :

رأى الغزالي اختلاف الناس في الاديان ، واختلاف الائمة في المذاهب . وسلطان التقليد في اعتناق هذه وتلك ، ووافق ذلك منه عقلاً متطلعاً ذكياً ، وثقة بالنفس ، فاذا به حائر امام تضارب الاراء ، واذا به يتحرر من كل تقليد ، من الرضوخ لرأي امام او تعليم والد واستاذ ، ومن الركون الى ايمان موروث ، ليعود الى حقيقة الفطرة الاصلية، ويسلك طريق الحق الخالص .

رأى الغزالي ذلك وهو في عنفوان الشباب لم يبلغ العشرين ، وخلع التقليد وانكسرت عليه العقائد الموروثة وهو قريب عهدٍ بسنّ الصبا ، وجاوز الغزالي الخمسين وما شفى النفس من فحص العقائد والفرق !

ما اليقين ؟

ولما كان الغزالي يبحث عن حق يطمئن اليه ، ويوقن فيه ، رأى ان يبدأ بتحديد العلم اليقيني . وقد حدده هكذا : « العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك . بل الامان من الخطأ ينبغي ان يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدّى باظهار بطلانه ، مثلاً ، من يقلب الحجر ذهباً ، والعصا ثعباناً ، لم يورّث ذلك شكاً وانكارًا .[1]

الشك في الحس والعقل :

حدد الغزالي اليقين ، ثم شرع يبحث عنه في ما عنده من علوم ، فوجد نفسه « عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة ، الا في الحسيات والضروريات[2] » ، اي في ما يعرفه عن طريق الحس والعقل .

وبحث الغزالي في معلومات الحس اولاً ، فرآها خاطئة ، او عرضة للضلال : ألا نرى الظل جامداً ، وهو متحرك ؟ ألا نرى الكوكب صغيرًا ، وهو اكبر من الارض ؟ واذاً لا ثقة بالحس ، ولا يقين في ما نعلمه عن طريقه !

---

١) المختارات : ص ٣٢ — قال داكرت ، في بحث مماثل : «لا اسلّم بحقيقة ما لم تبدُ لي بوضوح ، ولا اشمل في احكامي الا ما ظهر لي بجلاء ودقة لا يبقى معها مجال للشك .»

٢) المختارات : ص ٣٣

والعقل ما شأنه ؟

ان للعقل اوليات تبدو ثابتة ، من مثل « العشرة اكثر من الثلاثة، والنفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً محالاً[١] . » وكاد الغزالي يركن الى عقله ، لولا شبهات عرضت له : لقد كان يثق بالحس الى ان اتى حاكم العقل فكذّبه ، فلعلّ وراء العقل حاكماً اخر ، اذا تجلّى ، كذّبه وضلّله! ثم الا نعتقد في النوم اموراً ، وتظهر لنا اليقظة ضلالها، فلمَ لا نكون في شبه نوم ، ويكون الموت يقظة واهم مخدوع ؟ ويدّعي الصوفية انهم يشاهدون في احوالهم اموراً لا توافق ما يراه العقل ، افلا تكون الحالة الصوفية طريق الانسان الى الحق ؟[٢].

عرضت للغزالي هذه الشبهات ، وخطرت هـذه الخواطر ، ففقد الثقة بعقله ، بعد ان فقدها بحسه. ودام في شكه هذا قريباً من شهرين، هو فيهما « على مذهب السفسطة ، بحكم الحـال ، لا بحكم النطق والمقال[٣]» . وهكذا تطرق الغزالي من شك الى شك ، من الشك في ايمانه الى الشك في عقله !

---

١) المختارات : ص ٣٣

٢) ان الغزالي يستقي شبهات شكه من الشكّاك اليونان . وقد ردّ اناسيداموس هذه الشبهات الى عشر ، وهي تعود في جوهرها الى ان الحقيقة نسبيّة ، تختلف :

ا – حسب الحالات المختلفة من نوم ويقظة ، وصحة ومرض ، وصحو وسكر، وحب وبغض . . .

ب – حسب المسافات والامكنة ، فتبدو السفينة البعيدة صغيرة ثابتة ، حتى اذا اقتربت بدت كبيرة متحركة، وتبدو العصا منكسرة في الماء، مستقيمة خارجه . . .

ج – باختلاف العادات والقوانين والاراء ، فالفرس يجيزون ترويج الابناء من امهاتهم،ويجيز المصريون زواج الاخوة من اخواتهم،ويحظر القانون اليوناني كل ذلك . واختلافات الاديان ومذاهب الفلاسفة مشهورة .

٣) المختارات : ص ٣٤

الخروج من الشك في العقل :

حاول الغزالي الخروج من شكه في عقله بدليل ، فلم يتيسر له ذلك ، وكيف يستقيم دليل والاوليات غير مسلّم بها ؟

ودام الغزالي في شكه شهرين عادت بعدهما اليه الثقة بالاوليات العقلية ، لا بنظم دليل وترتيب كلام،بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر.

على ان الغزالي ، بعد ان يسهب في وصف هذا النور السماوي ، ينتهي فجأة بهذه النتيجة:« والمقصود من هذه الحكايات ان يُعمَل كمال الجد في الطلب حتى يُنتهى الى طلب ما لا يُطلب . فان الاوليات ليست مطلوبة ، فانها حاضرة ، والحاضر اذا طُلب فُقِد واختفى[1] . » وهذا شبه دليل عقلي خلاصته ان الاوليات هي اوضح شيء في نظر العقل، فلا تحتاج الى دليل لاثبات صحتها،بل لا يمكن ايجاد مثل هذا الدليل.

الخروج من الشك في الايمان :

خرج الغزالي من شكه في عقله ، فبقي ان يخرج من شكه في ايمانه ، وان يستقر على عقيدة ومذهب .

وشرع الغزالي فرأى ان الحق لا يتجاوز احدى فرق اربع:الكلام، والفلسفة، والباطنية ، والصوفية . فأخذ يستعرض هذه الفرق ، ويوجز تعاليمها ، وينقدها :

١ ـ الكلام :

اما الكلام فغايته حفظ عقيدة اهل السنَّة ، وحراستها عن تشويش اهل البدعة .

ويرى الغزالي في الكلام نقصين : الاول هو اعتماده على مقدّمات

---

١) المختارات : ص ٣٥

تسلّمها من التقليد او من إجماع الامة ، او من مجرّد القبول من القرآن والاخبار ، وهذا قليل النفع في حق من لا يسلّم سوى الضروريات . والثاني هو خوضه في استخراج مناقضات الخصوم ، وتقصيره في البحث عن حقائق الامور ، وهذا لا يبدد ظلمات الحيرة او يشرح اختلافات الخلق . واذًا الكلام لا يحوي الحق الشافي .

٢ ــ الفلسفة : كفر وبدع :

وانتقل الغزالي الى درس الفلسفة « بمجرد المطالعة ، من غير استعانة باستاذ[١] » ، وفي اوقات مختلسة اثناء تدريسه في بغداد . واطّلع على منتهى علومها « في اقل من سنتين[١] » ، ثم واظب على التفكر بها ، بعد فهمها ، « قريباً من سنة[١] » يعاودها ويرددها حتى يتبين ما فيها من خداع وتلبيس[٢] .

انتهى الغزالي من درس الفلاسفة فاذا هم اقسام ثلاثة : دهريون جحدوا الصانع ، وطبيعيون آمنوا بالله انما جحدوا خلود النفس ، والهيون — امثال سقراط وافلاطون وارسطو وابن سينا والفارابي — آمنوا بالله وخلود النفس ، انما كفروا في امور وأبدعوا في اخرى .

لا يجادل الغزالي الدهريين والطبيعيين ، لانهم زنادقة انكروا الايمان واليوم الآخر ، واصل الايمان هو الايمان بالله واليوم الآخر .

اما الالهيون فبعض علومهم صحيحة او لا تتصل بالدين ، وبعضها — كالطبيعيات والالهيات — اتت بكفر وبدع . والالهيون كفروا في ثلاث

---

١) المختارات : ص ٣٧

٢) واذًا استغرق بحثه الفلسفة قريباً من ثلاث سنوات ، ولعله في السنتين الاولين وضع كتاب « مقاصد الفلاسفة » ، ولعله في السنة الثالثة وضع كتاب « تهافت الفلاسفة » . وقد جاء في احدى المخطوطات ان كتاب التهافت قد تم في اول سنة ٤٨٨ ﻫ = ١٠٩٥

مسائل : قالوا بقدم العالم ، وانكروا حشر الاجسام ، ونفوا علم الله بالجزئيات . وقد وضع الغزالي كتاب « التهافت » لابطال مذهبهم في ما اتوا من كفر ومن بدع .

٣ ـــ الباطنية :

لم تفِ الفلسفة بغرض الغزالي ، ولم ينكشف له عن طريق العقل كل معضل ، فانتقل الى الباطنية .

والباطنية هذه رأت ان الآراء ابدًا متضاربة ، والعقول متنازعة ، فحكمت ببطلان العقل، وقالت بضرورة امام معصوم يبتّ في الخلاف، ويفصل في النزاع ، كي لا تفسد العقيدة ، ويلتبس الحق على الناس .

وأئمة الباطنية المعصومون سبعة اولهم علي،وسابعهم اسماعيل(+٧٦٢م) ابن جعفر الصادق . واسماعيل هذا حيّ لا يموت ، وغائب لا يُرى ، قد بثّ في الناس دعاة يهدون ويرشدون . وان اختلف الدعاة في امر ،او اغلق عليهم مشكل ، عادوا الى الامام واسترشدوه .

ورأى الغزالي عجز العقل ، كما رأوا ، وضرورة الامام المعصوم، انما لم يسلّم بامام سوى النبي . اجل ان النبي ميت ، ولكن امام الباطنية غائب يستحيل الوصول اليه عند الحاجة . ثم ما علّم هذا الامام ؟ وايّ خلاف ازال ؟ وعليّ رأس الأئمة هل ازال الخلاف ام زاده وقواه؟ وهل يستطيع امام ما عجز الانبياء انفسهم عنه ؟

٤ ـــ الصوفية :

واتى دور الصوفية .

طالع الغزالي « قوت القلوب » لابي طالب المكي (+ ٣٨٨هـ = ٩٩٨) ، وكتب الحارث المحاسبي (+٢٤٣هـ=٨٥٧) ، وما بقي من الجُنيد

(†٢٩٧=٩٠٩) والشبلي (†٣٣٤هـ=٩٤٥)، والبسطامي (†٢٦٤هـ=٨٧٧)، وغيرهم من المشايخ، فاذا اخص خواص الصوفية «ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات[1].» واذاً عليه ان يحيا الحياة الصوفية، ويسلك الطريقة، ان يترك التدريس في بغداد، وما يجده من مال وجاه، وان يغادر جوّه العائلي الدافئ، وما يغمره من حب الزوج والبنين، ويذهب زاهداً متأملاً سائحاً، كي يختبر الحالة الصوفية، ويبدي حكماً صائباً فيها.

وهنا يحدثنا الغزالي عن نزاع داخلي عنيف، عن تردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة دام قريباً من ستة اشهر اولها رجب سنة ٤٨٨ هـ = ١٠٩٥. ويخبرنا ان هذا التردد افضى به الى مرض بطلت معه قوة الهضم، وضعفت القوى، وعقل اللسان عن التدريس، وقطع الاطباء طمعهم من العلاج.

وانتهى هذا التردد بان سهل الله على قلبه الزهد، سهّل عليه الاعراض عن الجاه والمال والاولاد، فترك كل شيء، وغادر بغداد في ذي القعدة سنة ٤٨٨ هـ = ١٠٩٥.

غادر الغزالي بغداد رغم الحاح الولاة بالبقاء، ولوم ائمة الدين له. وقد تظاهر بالذهاب الى مكة، وهو ينوي السفر الى الشام، حذراً من ان يطلع الخليفة وجملة الاصحاب على عزمه في المقام بالشام.

سافر الغزالي الى الشام، حيث اقام سنتين، ثم قصد اورشليم والحجاز، معتكفاً على العزلة، ومجاهدة النفس، وتصفية القلب.

لسنا نعلم بالضبط كم اقام الغزالي في اورشليم والحجاز، انما نعلم ان حنيناً جدّ فيه الى الاهل والاطفال، وان هذا الحنين قد اشتدّ وطغى، واذا بالغزالي يعود الى وطنه بعد ان كان عزم الا يعود ابداً.

---

١) المختارات: ص ٤٠

على ان العودة لم تصرفه عن الحياة الصوفية ، وبعد عشر سنين من تركه التدريس في بغداد ، وصل الى هذا الرأي في الصوفية : الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، سيرتهم احسن السير ، واخلاقهم ازكى الاخلاق ، لان جميع حركاتهم وسكناتهم « مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة ، على وجه الارض ، نور يُستضاء به[1] ».

وهكذا انتهى الغزالي من بحثه للفرق ونقدها ، واستقر رأيه على ان الحق في الصوفية ، فاعتنقها مذهباً له .

٣ — نقد رواية المنقذ

على ان رواية الغزالي في المنقذ ، رواية شكوكه وبحثه وانتهائه الى التصوف ، ملأى بالمتناقضات ، مفتقرة الى نقد وتصحيح . واليك اهم ما نأخذ على هذه الرواية :

١ ــ خروج الغزالي من شكه في عقله غير منطقي :

ان عقلاً شكّ في قدرته لا يسعه الاطمئنان الى نور ظهر له او دليل اقنعه ، دون ان يعبث بالمنطق . والحال ان الغزالي بعقله رأى النور الذي قذفه الله في صدره ، وبعقله رأى ان الاوليات واضحة بذاتها ، لا يُطلب عليها برهان !

٢ ــ حصر الغزالي الحق على اربع فرق امر غريب :

حين يشكّ انسان في ايمانه ، وينوي البحث عن الايمان الحق ، عليه ان يستعرض اهم اديان عصره ، ومذاهب بيئته ، فلماذا لم يقم الغزالي بهذا البحث الشامل ، وكيف امكنه ان يفترض — دون اي بحث

(١) المختارات : ص ٤٤

سابق — ان الحق لا يعدو احدى اربع فرق : الكلام والفلسفة والباطنية والصوفية ؟ !

٣ ـ نقد الغزالي للفرق نقد مسلم مؤمن لا نقد من يبحث عن ايمانه ضائع :

ان الغزالي اقبل على نقد الفرق ، بعد ان اكّد لنا خلعه كل تقليد، وكل ايمان ، واكّد اتخاذه اوليات العقل اساساً وحيداً للبحث .

وتقيد الغزالي بمنطق مقدماته حين نقد الكلام ، فعاب عليه استناده الى غير الضروريات العقلية ، واهتمامه بالرد على الخصوم اكثر من اهتمامه بالبحث عن الحق .

على ان الغزالي قد خرج عن المنطق كل الخروج حين اقبل على نقد باقي الفرق ، فنقدها كرجل مؤمن ، وعاب عليها ما عاب باسم الايمان !

ألم يسلّم بعصمة الرسول حين ردّ على الباطنية ؟ ألم يحكم على الفلاسفة بالزندقة والكفر لانهم انكروا حقائق ايمانية ؟ ألم يرَ اخلاق الصوفية افضل الاخلاق لانها مقتبسة من نور النبوة ، وليس وراء نور النبوة نور ؟

ان نقد الغزالي للفرق هو نقد مؤمن في مجمله ، فكيف يتفق وموقفه الاساسي من البحث عن صحة الايمان ؟

٣ — فرض

واذاً علينا الّا نتخذ رواية المنقذ على انها رواية صحيحة ، والا نستند اليها لمعرفة تطور تفكير الغزالي .

بل لا بد لنا من حلّ متناقضات هذه الرواية ، اذا شئنا الا نقف عند النقد ، وان نرى نوع تفكير الغزالي ، وتطور هذا التفكير . واليك خلاصة ما نرى :

١ ــ نظرية المذاهب الثلاثة :

يرى الغزالي ان لكل كامل ثلاثة مذاهب :

احدها هو المذهب الرسمي ، مذهب الآباء والبيئة ، الذي يتعصب له الانسان ويباهي به .

والثاني مذهب يستعمل في الارشاد ، ويتغير بتغير المسترشد ، مراعياً فهمه وتفكيره .

والثالث مذهب يعتقده الرجل سرًّا بينه وبين الله ، لا يطلع عليه غير الله ، او من شاركه فيه[1] .

٢ ــ تطبيق النظرية على الغزالي :

واذا كانت هذه نظرة الغزالي الى المذاهب ، نستطيع ان نثبت الامور التالية :

ا — كان للغزالي مذهب رسمي ، هو مذهب السنّة ، وقد دافع عنه في كتبه الكلامية ، فهاجم الباطنية ، وبدّع الفلاسفة وكفّر . وهذا المذهب لم يظهر فيه شكاً ، حتى في اعنف ساعات شكه ، يوم كان يدرّس في بغداد .

ب — وكان الغزالي يبحث ، في سرّه ، عن مذهب يعتنقه بينه وبين ربه . ان مذهبه الرسمي ظل الى زمن مذهبه الباطني ، ولكنه منذ صباه بدأ يشك في هذا المذهب ، وبلغت شكوكه ذروتها اثناء تدريسه في بغداد . هذا الشك لم يبح به ، ولم يكتب عنه ، بل كتمه في نفسه ، كلّ الفترة التي كان يقاسي فيها ريبه وتردده . اما يوم خرج منه فقد

---

١) انظر المختارات : ص ٥١-٥٢

تحدث عنه في اكثر من نص ، في المنقذ وفي غيره[1].

ج – واذاً لقد شكّ الغزالي حقاً ، شك في عقله وشك في ايمانه.

على ان هذا الشك ما كان جارفاً ، هادماً ، بل كان تردّداً وريباً.

شك الغزالي في عقله شكاً خفيفاً عارضاً ، لم يدم سوى شهرين ، وخرج منه لأن شكّ العقل في قدرته لا يقوى طويلاً على الزمن.

وشك الغزالي في ايمانه شكاً رفيقاً طوراً ، وعنيفاً آخر ، وطال زمن هذا الشك ، ولكنه لم يبلغ مرةً واحدة الى طرح كل ايمان ، وخلع كل عقيدة. وقد انتهى هذا الشك بمذهب اختياري يؤمن ، على ما نظن ، بالاسلام ديناً ، وبالتصوف مذهباً،وببعض نظريات الفلاسفة اراء.

د – وجعل الغزالي من التصوف خير ثمرة للاسلام ، وخير طريق للمؤمن ، وراقه ان يكتب فيه ويدعو اليه.

وليس كتاب المنقذ ، في نظرنا ، سوى دعوة الى التصوف . واذاً هو من نوع الكتب التي يراد بها ارشاد الناس الى الحق، والتي يستعمل فيه صاحبه ما يقنع المسترشد . ولما كان الغزالي يتجه في ارشاده الى

---

١) جاء في جواهر القرآن (ص ٤٤-٤٦) ، في معرض الحديث عن فئة من الناس لم تفتح لهم طريق المعاني الروحانية في القرآن : « تشوشت عليهم الظواهر ، وانقدحت عندهم اعتراضات عليها ، وتخايل لهم ما يناقضها ، فبطل اصل اعتقادهم في الدين ، واورثهم ذلك جحوداً باطناً في الحشر والنشر ، والجنة والنار ، والرجوع الى الله تعالى بعد الموت ، واظهروها في سرائرهم ، وانحلّ عنهم لجام التقوى .. ولسنا نستبعد ذلك ، فلقد تعثرنا في اذيال هذه الضلالات مدة ، لشؤم اقران السوء وصحبتهم ، حتى ابعدنا الله عن هفواتها ، ووقانا من ورطاتها . »

وجاء في ميزان العمل ، بعد حديثه عن كثرة المذاهب : « ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات الا ما يشككك في اعتقادك الموروث، لتنتدب للطلب،فناهيك به نفعاً . اذ الشكوك هي الموصلة الى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال ، نعوذ بالله من ذلك . »

المسلمين المؤمنين ، فقد رأى ان يهدم فيهم سلطان التقليد برواية ما عرض له من شكوك ، وان ينقد الفرق ببراهين مستمدة من ايمانهم . وهذا هو السبب ، على ما نظن ، الذي قطع الصلة بين شك الغزالي ونقده ، وجعل من المنقذ سلسلة متناقضات . لقد كانت غايته استدراج قارئه المسلم الى تصوفه ، لا عرض تطوره الفكري عرضاً واقعياً اميناً .

ه — على ان الغزالي ، ان يبح بتصوفه ، ويدعُ اليه، فلأنه استطاع ان يلائم بينه وبين مذهبه الرسمي . ولكن أما كان يرى ، في مذهبه السرّي ، بعض ما يرى الفلاسفة ، ويخالف مذهب السنة الرسمي ؟ هذا ما سنبحثه في غير هذا المكان ، ان يسّر الله .

مصادر الدراسة

ان ما استندنا اليه، في درسنا الغزالي، من مصادر عربية واعجمية للائحة تطول، لهذا آثرنا اثبات اهم تآليف الغزالي المطبوعة، ملمين الماماً بموضوعها الاساسي. وانا نقسم هذه التآليف اقساماً اربعة :

ا — في الفقه

١ — المستصفى في علم الاصول : كتاب في اصول الفقه، وضعه الغزالي بعد عودته الى التدريس في نيسابور. وهذه الاصول هي : كتاب الله، والسنة، واجماع المسلمين.

٢ — الوجيز في مذهب الامام الشافعي.

ب — في الكلام

نثبت تحت هذا العنوان ما ألفه الغزالي عرضاً لعقيدة السنة، او دفاعاً عنها ضد الباطنية والفلاسفة، لانا نعد كل ذلك — كما يعده الغزالي نفسه — متصلاً بعلم الكلام :

١ — الاقتصاد في الاعتقاد : المطبعة الادبية، مصر : كُتب قبل احياء علوم الدين، وهو بحث في ذات الله، وصفاته، وافعاله، ورسله، على طريقة المذهب الاشعري اجمالاً.

٢ — إلجام العوام عن علم الكلام : ردّ على الحشوية، على اعتقادها في

الله ما يتقدس عنه من الصورة واليد ، والقدم ، والجلوس على العرش ، وما يجري مجراه .

٣ – فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة : الكفر تكذيب الرسول . وان لتأويل القرآن قوانين ، يجب التقيد بها ، للسلامة من الكفر .

•

٤ – القسطاس المستقيم : احد كتب الغزالي الكثيرة في الرد على الباطنية . ويرى الغزالي ان معرفة المنطق كافية لتمييز الحق عن الباطل ، فالاستغناء عن الامام المعصوم . والكتاب في جوهره عرض لقياسات منطقية .

•

٥ – مقاصد الفلاسفة : كتاب ألفه الغزالي اثناء تدريسه في بغداد ، وقد عرض فيه فلسفة الفارابي وابن سينا ، تمهيداً للرد عليها في كتاب التهافت : « ان الوقوف على فساد المذاهب ، قبل الاحاطة بمداركها ، محال ، بل هو رمي في العماية والضلال . فرأيت ان اقدّم على بيان تهافتهم كلاماً وجيزاً ، مشتملاً على حكاية مقاصدهم من علومهم المنطقية ، والطبيعية ، والالهية ، من غير تمييز بين الحق منها والباطل . »

٦ – تهافت الفلاسفة : المطبعة الكاثوليكية ، بيروت : هو اعنف حملة شنّها متكلم على الفلسفة . وقد حاول الغزالي اظهار ما في فلسفة الفارابي وابن سينا من كفر ومن بدع ، وما في نظرياتها من تناقض ، وفي ادلتها من وهن . وقد دار رده حول عشرين مسألة ، تناول فيها قدم العالم ، وطبيعة الله ، وروحانية النفس

ونعد هذا الكتاب تأليفاً كلامياً ، لا تأليفاً فلسفياً ، او قل نوعاً من الجدل المزمن بين الدين والفلسفة . ذاك ان الغزالي لا يهدم فلسفة معلومة – فلسفة الفارابي وابن سينا – ليبني فلسفة اخرى خاصة ، وانما

يهدم الفلسفة جملة ، ويحط من قدرة العقل ، ليرفع من قـدر الوحي ، ويعلي من شأن النبوة. وان الغزالي بعد حريص على الهدم واظهار التناقض، اكثر مما هو حريص على اظهار الحق او الاقتناع بالحجة .

وان ما اتى به الغزالي ، اثناء جدله ، من براهين عقلية ، ونظريات فلسفية طريفة ، لامر اقتضاه الجدل ، وما نظن الغزالي — كما يبوح هو نفسه — معتقداً كل ما يقول .

٧ – معيار العلم : كتاب في المنطق ، اراد من وضعـه تأليفاً في هذا الموضوع ، واطلاع القارئ على ما استعمله من اصطلاحات منطقية في كتاب التهافت .

ج — في التصوف :

١ – احياء علوم الدين : المطبعة العامرة ، مصر ، ١٣٢٦ هـ :

غرّة كتب الغزالي ، شرع في تأليفه اثناء سياحاته الصوفية ، ولعله لم ينجزه في صيغته النهائية الا في اواخر عمره .

قال الغزالي ممهدًا لهذا الكتاب : « رأيت الاشتغال بتحرير هـذا الكتاب . . . احياء لعلوم الدين ، وكشفاً عن مناهج الائمة المتقدمين، . . . وقد اسسته على اربعة ارباع ، وهي ربع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات . . .

ويشتمل ربع العبادات على عشرة كتب : كتاب العلم ، وكتاب قواعد العقـائد ، وكتاب اسرار الطهارة ، وكتاب اسرار الصلاة ، وكتاب اسرار الزكاة ، وكتاب اسرار الصيام ، وكتاب اسرار الحج ، وكتاب آداب تـلاوة القرآن ، وكتاب الاذكار والدعوات ، وكتاب ترتيب الاوراد في الاوقات .

واما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب: كتاب آداب الاكل، وكتاب آداب النكاح، وكتاب احكام الكسب، وكتاب الحلال والحرام، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع اصناف الخلق، وكتاب العزلة، وكتاب آداب السفر، وكتاب السماع والوجد، وكتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكتاب آداب المعيشة واخلاق النبوّة.

واما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب: كتاب شرح عجائب القلب، وكتاب رياضة النفس، وكتاب آفات الشهوتين، شهوة البطن وشهوة الفرج، وكتاب آفات اللسان، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد، وكتاب ذم الدنيا، وكتاب ذم المال والبخل، وكتاب ذم الجاه والرياء، وكتاب ذم الكبر والعجب، وكتاب ذم الغرور.

واما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب: كتاب التوبة، وكتاب الصبر والشكر، وكتاب الخوف والرجاء، وكتاب الفقر والزهد، وكتاب التوحيد والتوكل، وكتاب المحبة والشوق والانس والرضى، وكتاب النية والصدق والاخلاص، وكتاب المراقبة والمحاسبة، وكتاب التفكر، وكتاب ذكر الموت».

وكأن هذا الكتاب دائرة معارف لما علّم الاسلام في العقائد والاخلاق، وانه لاعمق كلمة فاهت بها خلوات الغزالي.

٢ – كتاب الاربعين في اصول الدين: كُتب بعد كتاب الاحياء، وهو مثله اربعة ارباع، وكأنه مختصر له.

٣ – كيمياء السعادة: بهذه الكيمياء يتحول القلب من الرذيلة الى الفضيلة، على نحو ما جاء في كتاب «عجائب القلب» من ربع المهلكات.

٤ – الرسالة اللدنية: العلوم اما انسانية كالعلوم الشرعية والفلسفية،

واما ربانية او لدنية، وهي ما تنال بالالهام الصوفي. والعلم اللدني يغنيك عن العلم الانساني .

٥ – رسالة الطير : رسالة رمزية صوفية : اجتمعت انواع الطيور ، واختارت العنقاء لها ملكاً . ولما كانت العنقاء تسكن الغرب ، جدّت الطيور في طلبها ، حتى اذا مات اكثرها في الطريق ، وبلغ الباقون الغاية، علموا انهم انما بارادة الملك قد اتوا اليه : « انتم بانفسكم جئتم ، ام نحن دعوناكم ؟ انتم اشتقتم ام نحن شوقناكم ؟ نحن اقلقناكم فحملناكم في البر والبحر . »

٦ – ايها الولد : رسالة يحث فيها الغزالي تلميذاً انهى علومه على ان يقرن العلم بالعمل . كتبها بعد احياء علوم الدين.

٧ – ميزان العمل : مطبعة كردستان : قال الغزالي في مقدمته : « نبين ان الفتور عن طلب السعادة حماقة ، ثم نبين ان لا طريق الى السعادة الا بالعلم والعمل ، ثم نبين العلم وطريق تحصيله ، ثم نبين العمل المسعد وطريقه . »

٨ – الدرة الفاخرة : وصف لما يحدث للانسان بعد الموت .

٩ – جواهر القرآن : مطبعة كردستان ، مصر : فيه تقسيم للعلوم الدينية .

د — في ترجمة حياته

المنقذ من الضلال : مطبعة الترقي بدمشق ، ١٩٣٩ : يطلعنا الغزالي ، في هذا الكتاب ، على شكه ، وبحثه عن الحقيقة في علم الكلام ، والفلاسفة ، والباطنية ، والصوفية ، وعلى ما جرى له خلال ذلك من حالات عقلية ونفسية ، وحوادث خارجية مهمة .

مختارات

لقد اهملنا ، في مختاراتنا من الغزالي ، كتاب تهافت الفلاسفة ، كما اهملناه – او كدنا – في دراستنا ، آملين العودة اليه في دراسة مستقلة .

وقد حاولنا اختيار نصوص بارزة ، تروي قصة حياة ، او تعبر عن رأي .

وقد رأينا ان نلائم بين الدراسة والمختارات ، فنشرنا ، في هذا الجزء ، النصوص التالية :

١ – من المنقذ من الضلال : اهم نصوص الرسالة ، موجزين ما اهملنا منها .

٢ – من ميزان العمل : معنى المذهب – اعمل وان غير مؤمن !

٣ – من كتاب الاحياء : نصاً في علم الكلام .

رسالة

المنقذ من الضلال

غاية الرسالة

سألتني ، أيها الاخ ، أن أبثّ إليك غاية العلوم وأسرارها ، وغائلة المذاهب وأغوارها ، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفِرق ، مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد إلى يفاع الاستبصار ، وما استفدته أولًا من علم الكلام،وما اجتويتهُ ثانياً من طرق أَهل التعليم القاصرين ، لدرك الحق ، على تقليد الامام ، وما ازدريته ثالثاً من طرق التفلسف ، وما ارتضيته آخرًا من طريقة التصوف، وما انجلى لي، في تضاعيف تفتيشي عن أَقاويل الخلق ، من لباب الحق ، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد، مع كثرة الطلبة ، وما دعاني الى معاودتي بنَيسَابُور ، بعد طول المدة ، فابتدرت لاجابتك الى مطلبك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك . . .

الشك في الايمان

اعلموا — أحسن الله تعالى ارشادكم ، وألان للحق قيادكم — ان اختلاف الخلق في الاديان والملل ، ثم اختلاف الائمة في المذاهب ، على كثرة الفرق وتباين الطرق ، بحرٌ عميق غرق فيه الاكثرون ، وما نجا منه الا الاقلون . وكل فريق يزعم انه الناجي . . .

ولم ازل في عنفوان شبابي ، منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين، إلى الآن ، وقد أَناف السن على الخمسين ، اقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، واتوغل في كل مظلمة ، وأَتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، واتفحص

عن عقيدة كل فرقة ، واستكشف اسرار مذهب كل طائفة ...

وقد كان التعطش الى درك حقائق الامور دأبي وديدني من اول امري وريعان عمري ، غريزةً وفطرةً من الله وضعتا في جبلّتي ، لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلّت عني رابطة التقليد ، وانكسرت عليّ العقائد الموروثة ، على قرب عهدٍ بسنّ الصبا ، اذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء الا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم الا على التهوّد ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم الا على الاسلام . وسمعت الحديث المرويّ عن رسول الله ، صلى عليه وسلم ، حيث قال : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ على ٱلفِطْرَةِ فأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسانِهِ » ، فتحرك باطني إلى حقيقة الفطرة الاصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والاستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، واوائلها تلقينات ، وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات .

ما اليقين ؟

فقلت في نفسي : أولًا ، إنما مطلوبي العلمُ بحقائق الامور ، فلا بدّ من طلب حقيقة العلم مـا هي : فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك . بل الامان من الخطإ ينبغي ان يكون مقارناً لليقين مقارنةً لو تحدّى باظهار بطلانه ، مثلًا ، من يقلب الحجر ذهباً ، والعصا ثعباناً ، لم يورّث ذلك شكًّا وإنكارًا . فاني إذا علمت ان العشرة اكثر من الثلاثة ، فلو قال لي قائل : لا ، بل الثلاثة اكثر ، بدليل أني أقلب هذه العصا ثعباناً ، وقلَبها ، وشاهدت ذلك منه ، لم أشكَّ بسببه في معرفتي ، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه . فأما الشك فيما علمته ، فلا .

ثم علمت ان كل ما لا اعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقّنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه . وكل علمٍ لا أمان معه فليس بعلم يقيني .

الشك في الحس والعقل

ثم فتشت عن علومي ، فوجدت نفسي عاطلًا من علم موصوف بهذه الصفة ، إلا في الحسيات والضروريات . فقلت : الآن بعد حصول اليأس ، لا مطمع في اقتباس المشكلات الا من الجليّات ، وهي الحسيات والضروريات . فلا بدَّ من إحكامها أولًا لأتيقن أن ثقتي بالمحسوسات ، وأماني من الغلط في الضروريات . . . هو أمان محقّق لا غدر فيه ولا غائلة له . فأقبلت بجدٍّ بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات ، وانظر هل يمكنني ان اشكك نفسي فيها . فانتهى بي طول التشكيك الى ان لم تسمح نفسي بتسليم الامان في المحسوسات ايضاً ، واخذ يتسع الشك فيها ويقول : من اين الثقة بالمحسوسات ، وأقواها حاسة البصر ، وهي تنظر الى الظل فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنفي الحركة ، ثم بالتجربة والمشاهدة ، بعد ساعة ، تعرف انه متحرك ، وانه لم يتحرك دفعةً بغتةً ، بل على التدريج ذرةً ذرةً ، حتى لم تكن له حالة وقوف ؟ وتنظر الى الكوكب فتراه صغيرًا ، في مقدار دينار ، ثم الادلة الهندسية تدل على انه اكبر من الارض في المقدار ؟ هذا وامثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس باحكامه ، ويكذّبه حاكم العقل ويخوّنه تكذيباً لا سبيل الى مدافعته . فقلت : قد بطلت الثقة بالمحسوسات ايضاً . فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الاوليات ، كقولنا : العشرة اكثر من الثلاثة ، والنفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً محالًا . فقالت

المحسوسات : بمَ تأمن ان تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات، وقد كنتَ واثقاً بي ، فجاء حاكم العقل فكذّبني ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمرّ على تصديقي ؟ فلعل وراء ادراك العقل حاكماً آخر ، اذا تجلى ، كذب العقل في حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه . وعدم تجلي ذلك الادراك لا يدل على استحالته . فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلًا ، وايدت إشكالها بالمنام ، وقالت : أما تراك تعتقد في النوم اموراً،وتتخيل احوالا ، وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً، ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم انه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك اصل وطائل ؟ فبمَ تأمن ان يكون جميع ما تعتقده في يقظتك ، بحس او عقل ، هو حق بالاضافة الى حالتك التي انت فيها ، لكن يمكن ان تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك ، كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالاضافة اليها ؟ ! فاذا وردت تلك الحالة ، تيقنت ان جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها . ولعل تلك الحالة ما يدّعيه الصوفية انها حالتهم ، اذ يزعمون انهم يشاهدون في احوالهم ، التي لهم ، اذ غاصوا في انفسهم وغابوا عن حواسهم ، احوالًا لا توافق هذه المعقولات. ولعل تلك الحالة هي الموت ، اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :«الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا». فلعل الحياة الدنيا نوم بالاضافة الى الآخرة ، فاذا مات،ظهرت له الاشياء على خلاف ما يشاهده الآن . . .

فلما خطرت لي هذه الخواطر ، وانقدحت في النفس ، حاولت لذلك علاجاً ، فلم يتيسر ، اذ لم يكن دفعه الا بالدليل ، ولم يمكن نصب دليل الا من تركيب العلوم الاولية ، فاذا لم تكن مسلّمة لم يمكن ترتيب الدليل . فاعضل هذا الداء ، ودام قريباً من شهرين ، أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال ، حتى

شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس الى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولةً ، موثوقاً بها على أمن ويقين . ولم يكن ذلك بنظم دليل ، وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر . وذلك النور هو مفتاح اكثر المعارف . فمن ظن ان الكشف موقوف على الادلة المحرَّرة ، فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة. ولما سئل رسول الله عليه السلام عن « الشرح » ومعناه ، في قوله تعالى : « فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام. » فقال : « هو نور يقذفه الله تعالى في القلب . » فقيل :« وما علامته ؟ » فقال : « التجافي عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود . » وهو الذي قال عليه السلام فيه : « ان الله تعالى خلق الخلق في ظلمة، ثم رش عليهم من نوره.» فمن ذلك النور ينبغي ان يطلب الكشف. وذلك النور ينبجس من الجود الالهي، في بعض الاحايين ، ويجب الترصد له ، كما قال عليه السلام : « ان لربكم في ايام دهركم نفحات ، ألا فتعرَّضوا لها ! ».

والمقصود من هذه الحكايات ان يُعمل كمال الجد في الطلب ، حتى ينتهي الى طلب ما لا يطلب . فان الاوليات ليست مطلوبة ، فانها حاضرة . والحاضر اذا طلب فقد واختفى...

اصناف الطالبين

ولما شفاني الله تعالى من هذا المرض بفضله وسعة جوده ، انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق :

١ – المتكلمون : وهم يدّعون أنهم أهل الرأي والنظر .

٢ – الباطنية : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم، والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم .

٣ – الفلاسفة : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .

٤ – الصوفية : وهم يدَّعون أنهم خواصُّ الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة .

فقلت في نفسي : الحق لا يَعدو هذه الأصناف الأربعة، فهؤلاء هم السالكون سُبُلَ طلب الحق ، فإن شذَّ الحق عنهم ، فلا يبقى في دَرْك الحق مطمع ، إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته ، إذ من شرط المقلّد أن لا يعلم أنه مقلِد ، فإذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده ، وهو شَعْبٌ لا يُرأب ، وشعثٌ لا يُلم بالتلفيق والتأليف ، إلا أن يذاب بالنار ، ويستأنف له صنعة أخرى مستجدّة

فابتدرت لسلوك هذه الطرق ، واستقصاء ما عند هذه الفِرق ، مبتدئاً بعلم الكلام ، ومُثَنِّياً بطريق الفلسفة ، ومثلثاً بتعليم الباطنية ، ومربعاً بطريق الصوفية :

١ ـ علم الكلام : مقصوده وحاصله

ثم إني ابتدأت بعلم الكلام ، فحصَّلته وعقلته ، وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنَّفت فيه ما أردت أن أصنف ، فصادفته علماً وافياً بمقصوده ، غير وافٍ بمقصودي . وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة . فقد ألقى الله تعالى الى عباده ، على لسان رسوله ، عقيدةً هي الحق ، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والاخبار . ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة امورًا مخالفة للسنة ، فلهجوا بها وكادوا يشوّشون عقيدة الحق على اهلها . فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين ، وحرَّك دواعيهم لنصرة السُّنَّة . . . ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدّمات تسلموها من خصومهم، واضطرَّهم إلى تسليمها : إما التقليد ، أو إجماع الأمة ، او مجرَّد القبول من القرآن والأخبار . وكان اكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذتهم

بلوازم مسلّماتهم. وهذا قليل النفع في حق من لا يُسلّم سوى الضروريات شيئاً اصلاً . فلم يكن الكلام في حقي كافياً ، ولا لدائي الذي كنت اشكوه شافياً ...

٢ ـ الفلسفة

ثم إني ابتدأت ، بعد الفراغ من علم الكلام ، بعلم الفلسفة . وعلمت يقيناً انه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوي اعلمهم في اصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته ، فيطّلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غورٍ وغائلة ...

فشمّرت عن ساق الجد ، في تحصيل ذلك العلم من الكتب ، بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ ، وأقبلت على ذلك في اوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية ، وأنا ممنوٌّ بالتدريس والإفادة لثلاثمئة نفس من الطلبة ببغداد . فأطلعني الله سبحانه وتعالى ، بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلَسة ، على منتهى علومهم في اقل من سنتين. ثم لم أَزل اواظب على التفكّر فيه بعد فهمه قريباً من سنة، أُعاوده واردده وأتفقد غوائله وأغواره ، حتى اطّلعت على ما فيه من خداع وتلبيس ، وتحقيق وتخييل ، اطلاعاً لم اشكّ فيه .

فاسمع الآن حكايته وحكاية حاصل علومهم، فإني رأيتهم اصنافاً، ورأيت علومهم اقساماً ؛ وهم على كثرة اصنافهم يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد ، وإن كان بين القدماء منهم والاقدمين ، وبين الأواخر منهم والأوائل ، تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه .

ثم يقسم الغزالي الفلاسفة ثلاثة اقسام : دهريين جحدوا الله ، وطبيعيين آمنوا بالله انما انكروا خلود النفس واليوم الاخر ، والهيين – كسقراط وافلاطون وارسطو عند اليونان ، وكابن سينا والفارابي من متفلسفة الاسلام – قد آمنوا بالله والاخرة ، انما كفروا بعقائد واتوا ببدع .

الدهريون والطبيعيون زنادقة ، لا يرى الغزالي الى جدالهم حاجة . اما الآلهيون ففلسفتهم اقسام ستة : رياضية ، ومنطقية ، وسياسية ، وخلقية ، وطبيعية ، والهية . الرياضيات والمنطق والسياسة والاخلاق علوم صحيحة . الطبيعيات خالفت الدين في مسائل معينة .

اما الالهيات

اما الالهيات ففيها اكثر اغاليطهم ، فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق ، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها . ولقد قرب مذهب ارسطاطاليس فيها من مذهب الاسلاميين ، على ما نقله الفارابي وابن سينا . ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع الى عشرين اصلاً ، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها ،وتبديعهم في سبعة عشر . ولابطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين ، صنفنا كتاب التهافت .

اما المسائل الثلاث، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين ، وذلك في قولهم :

١ — ان الاجساد لا تحشر ، وانما المُثاب والمعاقب هي الارواح المجردة ، والمثوبات والعقوبات روحانية ، لا جسمانية . ولقد صدقوا في اثبات الروحانية ، فانها كائنة ايضاً ، ولكن كذبوا في انكار الجسمانية ، وكفروا بالشريعة في ما نطقوا فيه .

٢ - ومن ذلك قولهم : ان الله تعالى يعلم الكليات ، دون الجزئيات . وهذا ايضاً كفر صريح ، بل الحق انه «لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السماوات ولا في الارض . »

٣ — ومن ذلك قولهم بقدم العالم وازليته ، فلم يذهب احد من المسلمين الى شيء من هذه المسائل

واما وراء ذلك من نفيهم الصفات ، وقولهم انه عليم بالذات ، لا بعلم زائد ، وما يجري مجراه ، فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة ، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك .

٣ ـ مذهب التعليم وغائلته

ثم إني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهمه وتزييف ما يزيف منه ، علمت ان ذلك ايضاً غير وافٍ بكمال الغرض ، وان العقل ليس مستقلًا بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات. وكان قد نبغت نابغة التعليمية ، وشاع بين الخلق تحدُّثُهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق ، عنّ لي ان البحث عن مقالاتهم ، لأَطَّلع على ما في كتبهم . ثم اتفق ان ورد عليّ أمر جازم من حضرة الخلافة ، بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم ، فلم يسعني مدافعته ، وصار ذلك مستحثاً من خارج ، ضميمةً للباعث الأصلي من الباطن . فابتدأت بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم...

ودعواهم انه : « لا يصلح كل معلم،بل لا بُدّ من معلم معصوم.» وظهرت حجتهم في إظهار الحاجة الى التعليم والمعلم،وضعُف قول المنكرين في مقابلته ، فاغترَّ بذلك جماعةٌ وظنوا ان ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم ، ولم يفهموا ان ذلك لضعف ناصر الحق وجهله بطريقه ، بل الصواب الاعتراف بالحاجة الى المعلم ، وانه لا بُدّ وان يكون المعلم معصوماً ، ولكن معلمنا المعصوم هو محمد عليه السلام. فإذا قالوا : « هو مَيْتٌ » فنقول : « فمعلمكم غائب .» فاذا قالوا : « معلمنا قد علَّم الدعاة وبثَّهم في البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم ان اختلفوا او اشكل عليهم مشكل . » فنقول : « ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد وأكمل التعليم اذ قال الله تعالى : « اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي [1] » . وبعد كمال التعليم لا يضرُّ موت المعلِّم كما لا يضرّ غيبته .

[1] « سورة المائدة » ، الآية ٤

ثم يتطرق الغزالي الى تفاصيل فيرى ان الخلاف بين الناس يرفع بواسطة المنطق ، الذي استخرجه من القرآن في كتابه القسطاس المستقيم ، كما يرى ان امام الباطنية لم يرفع ذلك الخلاف ، بل كان الخلاف الذي احدثه عليّ رأس الائمة المعصومين سبباً لسفك الدماء وتخريب البلاد .

٤ ـــ الصوفية

ثم إني لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلتُ بهمّتي على طريق الصوفية، وعلمت ان طريقتهم إنما تتمُّ بعلم وعمل . وكان حاصل علمهم قطعَ عقبات النفس ، والتنزُّه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل الى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتَحْليتِهِ بذكر الله .

وكان العلم أيسر عليّ من العمل . فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل : « قوت القلوب » لأبي طالب المكّي » ، وكتب « الحارث المحاسبي » ، والمتفرّقات المأثورة عن « الجُنيد » و « الشِبلي » و « ابي يزيد البسطامي » ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصّلت ما يمكن ان يُحصَّل من طريقهم بالتعلّم والسماع . فظهر لي ان اخص خواصهم مـا لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدُّل الصفات ...

وكان قد حصل معي ــ من العلوم التي مارستها والمسالك التي سلكتها ، في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية ــ إيمان يقينيٌّ بالله تعالى ، وبالنُّبوّة ، وباليوم الآخر . فهذه الأصول الثلاثة من الايمان كانت رسخت في نفسي ، لا بدليل معيّن محرّر، بل بأسبابٍ وقرائن وتجاريبَ لا تدخل تحت الحصر تفاصيلُها .

وكان قد ظهر عندي انه لا مطمع في سعادة الآخرة الا بالتقوى ، وكفّ النفس عن الهوى . وان رأس ذلك كله قطعُ علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود، والاقبال بكُنْه

الهمة على الله تعالى . وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق .

ثم لاحظت احوالي ، فاذا انا منغمس في العلائق ، وقد احدقت بي من الجوانب .ولاحظت اعمالي، واحسنها التدريس والتعليم ، فاذا انا فيها مقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة في طريق الآخرة .

ثم تفكرت في نيتي في التدريس ، فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه ، وانتشار الصيت . فتيقنت اني على شفا جرف هار ، واني قد أشفيت على النار ، ان لم اشتغل بتلافي الاحوال.

فلم ازل اتفكر فيه مدة ، وانا بعد على مقام الاختيار ، أصمم العزم على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الاحوال يوماً ، وأحل العزم يوماً واقدّم فيه رجلًا ، واؤخر عنه اخرى . لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة،الا وتحمل عليها جند الشهوة حملة فتفترها عشية. فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها الى المُقام ، ومنادي الايمان ينادي : الرحيل ! الرحيل ! فلم يبقَ من العمر الا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما انت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ! فان لم تستعد الآن للآخرة ،فمتى تستعد ؟ وان لم تقطع الآن هذه العلائق ، فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية،وينجزم العزم على الهرب والفرار.

ثم يعود الشيطان، ويقول :« هذه حال عارضة ، اياك ان تطاوعها ، فانها سريعة الزوال . فان اذعنت لها ، وتركت هذا الجاه العريض ، والشان المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص ، والامن المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت اليه نفسك، ولا يتيسر لك المعاودة.»[1]

---

(1) ان هذا النزاع النفسي ، الذي هزّ الغزالي في اعماقه ، لشبيه بما حدث للقديس اغسطينوس ، عندما دعاه الله اليه . واليك مقطعاً من « الاعترافات » يصور لك تلك العاصفة الداخلية :

فلم ازل اتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة ،قريبا من ستة اشهر ، اولها رجب سنة ثمان وثمانين واربعمئة. وفي هذا الشهر ، جاوز الامر حد الاختيار الى الاضطرار ، اذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت اجاهد نفسي ان ادرّس يوماً واحدًا ، تطييباً لقلوب المختلفة اليّ ،فكان لا ينطلق لساني بكلمة ، ولا استطيعها البتّة ، حتى اورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب ، بطلت معه قوة الهضم ، ومراءة الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لي ثريد ، ولا تنهضم لقمة . وتعدّى الى ضعف القوى ، حتى قطع الاطباء طمعهم من العلاج ، وقالوا : هذا امر نزل بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج ، فلا سبيل اليه بالعلاج ، الا بان يتروح السر عن الهم الملم .

ثم لما احسست بعجزي ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فاجابني الذي «يجيب المضطر اذا دعاه»[1] ،وسهّل على قلبي الاعراض عن الجاه والمال والاولاد والاصحاب . واظهرت عزم الخروج الى مكة ، وانا ادبّر في نفسي سفر الشام ، حذرًا ان يطلع الخليفة وجملة الاصحاب على عزمي في المقام بالشام . فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد ، على عزم ان لا اعاودها ابدًا . واستهدفت لائمة اهل العراق كافة ، اذ لم يكن فيهم من يجوز ان يكون الاعراض عما كنت فيه سبباً دينياً ، اذ ظنوا ان ذلك هو المنصب الاعلى في الدين . وكان ذلك مبلغهم من العلم .

« في قلقي القاسي كنت اوبخ نفسي اكثر من العادة ، وانقلب متمرغاً في قيودي لاكمل قطعها . . . كنت مقيدًا بتوافه سافلة ، بأباطيل مخجلة ، بصديقات الامس اللواتي كن كاهن يجذبنني بثياب الجسد ، ويهمسن في اذني : اتتركنا ؟ ولن نسكن معك الى الابد ! وسيحرم عليك كذا وكذا الى الابد ! وما كانت ، الهي ، هذه الاشياء التي يوقظن صورها فيّ ؟ امحُها برأفتك من ذكريات عبدك ! يا لها من فظائع مخجلة ! ».

١) سورة النمل : ٦٢

ثم ارتبك الناس في الاستنباطات ، وظن من بعد عن العراق ان ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة . واما من قرب من الولاة ، وكان يشاهد الحاحهم في التعلق بي ، والانكباب عليّ ، واعراضي عنهم ، وعن الالتفات الى قولهم ، فيقولون : هذا امر سماوي ، وليس له سبب الا عين اصابت اهل الاسلام ، وزمرة العلم !

ففارقت بغداد ، وفرّقت ما كان معي من المال ، ولم أدّخر إلّا قدر الكفاف ، وقوت الاطفال ، ترخّصاً بأن مال العراق مُرصد للمصالح ، لكونه وقفاً على المسلمين ، فلم ارَ في العالم مالًا يأخذه العالم لعياله اصلح منه .

ثم دخلت الشام ، وأقمت به قريباً من سنتين لا شغل لي إلّا العزلة والخلوة ، والرياضة والمجاهدة ، اشتغالًا بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصّلته من علم الصوفية . فكنت اعتكف مدة في مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأُغلق بابها على نفسي .

ثم رحلت منها الى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسي .

ثم تحركت فيّ داعية فريضة الحج ، والاستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة رسول الله تعالى عليه السلام ، بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه ، فسرْت الى الحجاز

ثم جذبتني الهمم ، ودعوات الأطفال الى الوطن ، فعاودته بعد أن كنت أبعَد الخلق عن الرجوع اليه . فآثرت العزلة بـه ايضاً حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر .

وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعاش ، تغيّر

١) في ط : العلم

فيَّ وجه المراد ، وتشوّش صفوة الخلوة . وكان لا يصفو لي الحال ألّا في اوقات متفرقة . لكني مع ذلك لا اقطع طمعي منها ، فتدفعني عنها العوائق ، وأعود إليها .

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين . وانكشف لي في اثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤهـا واستقصاؤها . والقدر الذي اذكره ليُنتفع به : أني علمت يقيناً ان الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وان سيرتهم احسن السير ، وطريقهم اصوب الطرق، واخلاقهم ازكى الاخلاق . بل لو جُمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على اسرار الشرع من العلماء، ليغيّروا شيئاً من سيرهم واخلاقهم، ويبدّلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلا . فـان جميع حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يُستضاء به .

وبالجملة ، فماذا يقول القـائلون في طريقةٍ ، طهارتها — وهي اول شروطها — تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة ، استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله ؟ وهذا آخرها بالإضافة الى مـا يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها . وهي على التحقيق أول الطريقة ، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك اليه .

ومن اول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات ، حتى انهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وارواح الانبياء ، ويسمعون منهم اصواتاً ويقتبسون منهم فوائد . ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والامثال ، الى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحاول معبّر ان يعبر عنها ألّا اشتمل لفظه على خطإ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه .

وعلى الجملة ، ينتهي الامر الى قرب ، يكاد يتخيل منه طائفـة

الحلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ. وقد بيّنّا وجه الخطإ فيه في كتاب « المقصد الأسنى » ، بل الذي لابسَتْهُ تلك الحالة لا ينبغي ان يزيد على ان يقول :

وكانَ مَا كانَ مِمَّا لَسْتُ أذكُرُهُ ... فظنَّ خيرًا ولا تَسألْ عنِ الخَبَرِ[1]

ويتطرق الغزالي الى البحث في النبوة ، فاذا هي معرفة تجوز طور العقل ، بها عُرف الطب والنجوم ، وبها تداوى القلوب ، النوم لها انموذج والتصوف طريق .
اما فتور بعض الخلق – كالفلاسفة وغلاة المتصوفة وغيرهم – في الايمان بالنبوة فيعود الى مزاعم ليس ايسر من افضاحها .

رجوع الى نشر العلم

ثم إني لما واظبت على العُزلة والخَلوة قريباً من عشر سنين ، وبان لي في اثناء ذلك على الضرورة ، من أسبابٍ لا أُحصيها ، مرةً بالذوق ، ومرةً بالعلم البرهانيّ ، ومرةً بالقبول الايمانيّ : أن الإنسان خُلِقَ من بدن وقلب ، وأعني بالقلب حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله ، دون اللحم والدم ، الذي يشارك فيه الميّت والبهيمة . وان البدن له صحة بها سعادته ، ومرضٌ فيه هلاكه . وان القلب كذلك له صحة وسلامة ، ولا ينجو « إلّا من اتى الله بقلبٍ سليمٍ » ، وله مرض فيه هلاكه الابدي الاخرويّ ، كما قال تعالى : « في قلوبهم مرضٌ » . وأن الجهل بالله سم مهلكٌ ، وان معصية الله ، بمتابعة الهوى ، داؤه الممرّض . وان معرفة الله تعالى ترياقه المحيي ، وطاعته بمخالفة الهوى دواؤه الشافي ، وانه لا سبيل الى معالجته ، بازالة مرضه وكسب صحته ، الا بادوية ، كما لا سبيل الى معالجة البدن إلا بذلك . وكما ان ادوية البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصيةٍ فيها لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل ، بل يجب فيها

1) هذا البيت لابن المعتز .

تقليد الاطباء الذين اخذوها من الانبياء ، الـذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الاشيـاء ، فكذلك بان لي ، على الضرورة ، ان ادوية العبادات بحدودها ، ومقاديرها المحدودة المقـدرة من جهة الانبياء ، لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيهـا تقليد الانبياء الذين ادركوا تلك الخواص بنور النبوة ، لا ببضاعة العقل . . .

فالانبياء اطباء امراض القلوب ، وانما فائدة العقـل وتصرفه ان عرّفنا ذلك ، ويشهد للنبوة بالتصديق ، ولنفسه بالعجز عن درك مـا يُدرك بعين النبوة ، واخذ بايدينا ، وسلّمنا اليهـا تسليم العميان الى القائدين ، وتسليم المرضى المتحيّرين الى الاطباء المشفقين . والى ههنـا مجرى العقل ومخطاه ، وهو معزولٌ عما بعد ذلك ، الا عن تفهُّم ما يلقيه الطبيب اليه .

فهذه امور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة ، في مـدة الخلوة والعزلة .

ثم رأينا فتور الاعتقادات في اصل النبوة ، ثم في حقيقة النبوة ، ثم في العمل بما شرحته النبوة ، وتحققنا شيوع ذلـك بين الخَلق ، فنظرت الى اسباب فتور الخلق ، وضعف ايمانهم ، فاذا هي اربعة :

١ — سببٌ من الخائضين في علم الفلسفة .

٢ — وسبب من الخائضين في طريق التصوف .

٣ — وسبب من المنتسبين الى دعوى التعليم .

٤ — وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس .

فاني تتبّعتُ مدةً آحاد الخلق ، اسأل من يقصِّر منهم في متابعـة الشرع ، واسأله عن شبهته وابحث عن عقيدته وسرّه ، وقلت لـه : « ما لك تقصِّر فيها ؟ فان كنت تؤمن بالآخرة ولست تستعدُّ لها وتبيعها بالدنيا ، فهذه حماقة ! فانك لا تبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع ما

لا نهاية له بايام معدودة ؟ وان كنت لا تؤمن ، فأنت كافر ! فــدبّر نفسك في طلب الايمان ، وانظر ما سبب كفرك الخفيّ الــذي هو مذهبك باطناً ، وهو سبب جرأتك ظاهرًا ، وان كنت لا تُصرح به تجملًا بالايمان وتشرّفًا بذكر الشرع ! » .

فقائل يقول : « هذا امر لو وجبت المحافظة عليه ، لكان العلماء أجدر بذلك ، وفلانٌ من المشاهير بين الفضلاء لا يصلّي ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل اموال الاوقــاف واموال اليتامى ، وفلان يأكل ادرار السلطان ولا يحترز عن الحرام ، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة ! » وهلم جرا الى امثاله ...

وقائل ثانٍ : يدَّعي علم التصوف ، ويزعم انه قد بلغ مبلغاً ترقّى عن الحاجة الى العبادة !

وقائل ثالث : يتعلّل بشبهة أُخرى من شبهات اهل الاباحة !

وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف .

وقائلٍ رابع : لقي اهل التعليم فيقول : « الحقُّ مشكل ، والطريق اليه متعسّر ، والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المــذاهب اولى من بعض ، وأدلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأي أهــل الرأي ، والداعي الى التعليم متحكِم لا حجة له ، فكيف ادعُ اليقين بالشك ؟ »

وقائل خامس يقول : لست افعل هذا تقليدًا ، ولكني قرأت علم الفلسفة ، وأدركت حقيقة النبوة ، وإن حاصلها يرجع الى الحكمة والمصلحة ، وان المقصود من تعبُّداتها : ضبط عوام الخلق وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات ، فما انا من العوام الجهال حتى ادخل في حجر التكليف ، وإنمــا انا من الحكماء أتبع الحكمة وانا بصير بها ، مستغنٍ فيها عن التقليد ! »

هذا منتهى ايمان من قرأ مذهب فلسفة الالهيين منهم ، وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وابي نصر الفارابي .

وهؤلاء هم المتجملون بالإسلام .

وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن ، ويحضر الجماعات والصلوات ، ويعظّم الشريعة بلسانه ، ولكنه مع ذلك لا يترك شرب الخمر ، وانواعاً من الفسق والفجور ! واذا قيل له : « ان كانت النبوة غير صحيحة ، فلِمَ تصلّي ؟ » فربما يقول : « لرياضة الجسد ، ولعادة اهل البلد ، وحفظ المال والولد ! » وربما قال : « الشريعةُ صحيحةٌ ، والنبوة حق ! » فيقال : « فلمَ تشرب الخمر ؟ » فيقول : « انما نُهي عن الخمر لانها تورث العداوة والبغضاء ، وانا بحكمتي محترز عن ذلك ، واني اقصد به تشحيذ خاطري . » حتى ان ابن سينا ذكر في وصية له كتب فيها : انه عاهد الله تعالى على كذا وكذا ، وان يعظّم الاوضاع الشرعية ، ولا يقصّر في العبادات الدينية ، ولا يشرب تلهّياً بل تداوياً وتشافياً . فكان منتهى حالته في صفاء الايمان ، والتزام العبادات ، ان استثنى شرب الخمر لغرض التشافي .

فهذا ايمان من يدّعي الايمان منهم ، وقد انخدع بهم جماعة ، وزادهم انخداعهم ضعف اعتراض المعترضين عليهم ، اذ اعترضوا بمجاحدة علم الهندسة والمنطق ، وغير ذلك مما هو ضروريّ لهم ، على ما بيّنّا علته من قبل .

فلما رأيت اصناف الخلق من ضعف ايمانهم الى هذا الحد بهذه الاسباب ، ورأيت نفسي مليّةً بكشف هذه الشبهة ، حتى كان افضاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء ، لكثرة خوضي في علومهم وطرقهم ، اعني طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسّمين من العلماء ، انقدح في نفسي ان ذلك متعيّن في هذا الوقت محتوم . فماذا تغنيك الخلوة والعزلة ، وقد عمّ الداء ، ومرض الاطباء ، واشرف الخلق على الهلاك ؟

ثم قلت في نفسي : متى تشتغل انت بكشف هـذه الغمة ، ولو اشتغلت بدعوة الخلق،عن طرقهم الى الحق، لعاداك اهل الزمان باجمعهم؟ وانى تقاومهم ، فكيف تعايشهم ، ولا يتم ذلك الا بزمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر ؟

فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة ، وتعللّا بالعجز عن اظهار الحق بالحجة . فقدر الله تعالى ان حرّك داعية سلطان الوقت من نفسه ، لا بتحريك من خارج ، فامر امر الزام بالنهوض الى نيسابور ، لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الالزام حدًّا كان ينتهي ، لو اصررت على الخلاف ، الى حدّ الوحشة . فخطر لي ان سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغي ان يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة ، وطلب عزّ النفس وصونها عن اذى الخلق ...

فشاورت في ذلك جماعةً من ارباب القلوب والمشاهدات ، فاتفقوا على الاشارة بترك العزلة ، والخروج من الزاوية . وانضاف الى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة ، تشهد بان هذه الحركة مبدأ خير ورشد ، قدَّرها الله سبحانه على رأس هذه المئة ، وقد وعد الله سبحانه باحياء دينه على رأس كل مئة . فاستحكم الرجاء وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات ، ويسر الله تعالى الحركة الى نيسابور ، للقيام بهذا المهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين واربعمئة . وكان الخروج من بغداد سنة ثمان وثمانين واربعمئة ...

وانا اعلم اني ، وان رجعت الى نشر العلم، فما رجعت! فان الرجوع عود الى ما كان ، وكنت في ذلك الزمان انشر العلم الذي به يكسب الجاه ، وادعو اليه بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ونيتي . واما الآن، فادعو الى العلم الذي به يُترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه ،هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي ، يعلم الله ذلك مني . وانا ابغي ان

أصلح نفسي وغيري ، ولست ادري أأصل الى مرادي ام أخترم دون غرضي . ولكني اومن ايمان يقين ومشاهدة انه لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، واني لم اتحرك لكنه حركني ، واني لم اعمل ، لكنه استعملني . فاسأله ان يصلحني اولاً ، ثم يصلح بي، ويهديني ، ثم يهدي بي ، وان يريني الحق حقًّا ، ويرزقني اتباعه ، ويريني الباطل باطلاً ، ويرزقني اجتنابه .

ثم يحاول الغزالي اثبات النبوة ، والرد على خصومها ، وينهي الرسالة بوصف العالم الحقيقي :

العالم الحقيقي

ان العالم الحقيقيّ لا يقارف معصية الا على سبيل الهفوة ، ولا يكون مصرًّا على المعاصي اصلاً ، اذ العلم الحقيقي ما يعرّف ان المعصية سمٌّ مهلك ، وان الآخرة خير من الدنيا . ومن عرف ذلك ، لا يبيع الخير بما هو ادنى .

وهذا العلم لا يحصل بانواع العلوم التي يشتغل بها اكثر الناس . فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم الا جُرأة على معصية الله تعالى . واما العلم الحقيقي ، فيزيد صاحبه خشية وخوفاً ، وذلك يحول بينه وبين المعاصي الا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في الفترات ، وذلك لا يدل على ضعف الايمان . فالمؤمن مفتنٌ توّابٌ ، وهو بعيدٌ عن الاصرار والاكباب . . .

ونسأل الله العظيم ، ان يجعلنا ممن آثره واجتباه ، وارشده الى الحق وهداه ، والهمه ذكره حتى لا ينساه ، وعصمه عن شر نفسه حتى لم يؤثر عليه سواه ، واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد الّا ايّاه .

انتهت الرسالة

معنى المذهب

لعلك تقول : كلامك ، في هذا الكتاب ، انقسم الى ما يطابق مذهب الصوفية ، والى ما يطابق مذهب الاشعرية وبعض المتكلمين ، ولا يفهم الكلام الا على مذهب واحد ، فما الحق من هذه المذاهب ؟ فان كان الكل حقاً ، فكيف يتصور هذا ؟ وان كان بعضه حقاً ، فما ذلك الحق ؟

فيقال لك : اذا عرفت حقيقة المذهب ، لا تفعلك قط ، اذ الناس فيه فريقان :

فريق يقول : المذهب اسم مشترك لثلاث مراتب :

احداها ما يتعصب له في المباهاة والمناظرات .

والاخرى ما يسار به في التعليمات والارشادات .

والثالث ما يعتقده الانسان في نفسه، مما انكشف له من النظريات .

ولكل كامل ثلاثة مذاهب ، بهذا الاعتبار

فاما المذهب ، بالاعتبار الاول ، فهو نمط الآباء والاجداد، ومذهب المعلم ، ومذهب اهل البلد الذي فيه النشوء . وذلك يختلف بالبلاد ، والاقطار ، والمعلمين. فمن ولد في بلد المعتزلة، او الاشعرية، او الشفعوية، او الحنفية ، انغرس في نفسه ، منذ صباه ، التعصب له ، والذب دونه، والذم لما سواه . . ومبدأ هذا التعصب حرص جماعة على طلب الرياسة ، باستتباع العوام ، ولا تنبعث داعي العوام الا بجامع يحمل على التظاهر ، فجعلت المذاهب في تفصيل الاديان جامعاً . فانقسم الناس فرقاً ، وتحركت غوائل الحسد والمنافسة ، فاشتد تعصبهم ، واستحكم به تناصرهم . .

المذهب الثاني ما ينطبق في الارشاد والتعليم، على من جاءه مستفيداً، مسترشداً . وهذا لا يتعين على وجه واحد، بل يختلف بحسب المسترشد،

فيناظر كل مسترشد بما يحتمله فهمه... فالمذهب ، بهذا الاعتبار ، يتغير ويختلف ، ويكون مع كل واحد ، على حسب ما يحتمله فهمه.

المذهب الثالث ما يعتقده الرجل سرًا ، بينه وبين الله عزّ وجل ، لا يطلع عليه غير الله تعالى ، ولا يذكره الا مع من هو شريكه في الاطلاع على ما اطلع ، او بلغ رتبته يقبل الاطلاع عليه ويفهمه...

فهذا طريق فريق من الناس . واما الفريق الثاني ، وهم الاكثرون ، فيقولون : المذهب واحد ، هو المعتقد ، وهو الذي ينطق به تعليماً وارشادًا ، مع كل آدمي ، كيفما اختلفت حاله ، وهو الذي يتعصب له وهو اما مذهب الاشعري ، او المعتزلي ، او الكرامي ، او اي مذهب من المذاهب . والاولون يوافقون هؤلاء على انهم لو سئلوا عن المذهب انه واحد او ثلاثة ، لم يجز ان يذكر انه ثلاثة ، بل يجب ان يقال انه واحد .

وهذا يبطل تعبك بالسؤال عن المذهب ، ان كنت عاقلًا . فان الناس متفقون على النطق بان المذهب واحد ، ثم يتفقون على التعصب لمذهب ابيهم ، او معلمهم ، او اهل بلدهم . ولو ذكر ذاكر مذهبه ، فما منفعتك فيه ، ومذهب غيره يخالفه ، وليس مع واحد منهم معجزة يترجح بها جانبه . فجانبِ الالتفات الى المذاهب ، واطلب الحق بطريق النظر ، لتكون صاحب مذهب ، ولا تكن في صورة اعمى ، تقلد قائدًا يرشدك الى طريق ، وحواليك الفُ مثل قائدك ينادون عليك بانه اهلكك ، واضلك عن سواء السبيل ...

ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات الا ما يشككك في اعتقادك الموروث ، لتنتدب للطلب ، فناهيك به نفعاً . اذ الشكوك هي الموصلة الى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال ، نعوذ بالله من ذلك .

علم الكلام

نقول ان فيه منفعة ، وفيه مضرة . فهو باعتبار منفعته ، في وقت الانتفاع ، حلال ، او مندوب اليه ، او واجب ، كما يقتضيه الحال . وهو باعتبار مضرته ، في وقت الاستضرار ومحله ، حرام .

اما مضرته فاثارة الشبهات ، وتحريك العقائد ، وازالتها عن الجزم والتصميم . فذلك مما يحصل في الابتداء . ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ، ويختلف فيه الاشخاص . فهذا ضرره في الاعتقاد الحق .

وله ضرر اخر في تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة ، وتثبيته في صدورهم ، بحيث تنبعث دواعيهم ، ويشتد حرصهم على الاصرار عليه، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور من الجدل . . .

واما منفعته ، فقد يظن ان فائدته كشف الحقائق ، ومعرفتها على ما هي عليه ، وهيهات فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف . ولعل التخبيط والتضليل فيه اكثر من الكشف والتعريف . وهذا اذا سمعته من محدث او حشوي ، ربما خطر ببالك ان الناس اعداء ما جهلوا . فاسمع هذا ممن خبر الكلام ، ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة ، وبعد التغلغل فيه الى منتهى درجة المتكلمين ، وجاوز ذلك الى التعمق في علوم اخر تناسب نوع الكلام ،وتحقق ان الطريق الى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود. ولعمري،لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف،وايضاح لبعض الامور ، ولكن على الندور ، في امور جلية ، تكاد تفهم قبل التعمق في صنعة الكلام

بل منفعته شيء واحد ، وهو حراسة العقيدة ، التي ترجمناها على العوام ، وحفظها عن تشويشات المبتدعة ، بانواع الجدل فان العامي

ضعيف ، يستفزه جدل المبتدع ، وان كان فاسداً ، ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه .

(الاحياء : ١ : ٧٣)

اعمل ، وانه غير مؤمن !

يتكلم الغزالي عن سلوك سبيل السعادة الاخروية ، فيرى ان الناس في ذلك اربع فرق ، وان الفرقة الرابعة ذهبت الى ان الموت عدم محض ، وان الطاعة والمعصية لا عاقبة لها ، فيخاطب من يميل الى اعتقاد هذه الفرقة قائلا :

وان كنت تظن صحته ظناً غالباً ، ولكن بقي في نفسك تجويز صدق الانبياء والاولياء وجماهير العلماء ، ولو عن بعد ، فعقلك ايضاً يتقاضاك سلوك طريق الأمن ، واجتناب مثل هذا الخطر الهائل . فانك لو كنت في جوار ملك ، وامكنك ان تتعاطى في واحد من محارمه ، مثلًا ، عملًا من الاعمال ، تظن غالباً انه يقع منه موقع الرضى ، فيعطيك عليه خلعة وديناراً ، ويحتمل احتمالًا ، على خلاف الظن الغالب ، انه يقع منه موقع السخط ، فينكل بك ، ويفضحك ، ويديم عقوبتك كل عمرك ، اشار عليك عقلك بان الصواب ان لا تقتحم هذا الخطر . فانك ان فعلت واصبت فزيته دينار ، لا يطول بقاؤه معك . وان اخطأت فنكاله عظيم ، يبقى معك طول عمرك ، فليس تفي ثمرة صوابه بغائلة خطأه . . ولهذا قال علي ، رضي الله تعالى عنه ، لمن كان يشاغبه ويماريه في امر الاخرة : ان كان الامر على ما زعمت ، تخلصنا جميعاً ، وان كان الامر كما قلتُ ، فقد هلكتَ ونجوتُ .

فلاسفة العرب

سلسلة دراسات ومختارات

ظهر منها :

١ — ابن الفارض (طبعة ثانية)

٢ — ابو العلاء المعري (طبعة ثانية)

٣ — ابن خلدون (طبعة ثانية)

٤ — الغزالي : في جزئين (طبعة ثانية)

٥ — ابن طفيل

٦ — ابن رشد : في جزئين

٧ — اخوان الصفاء

للمؤلف ايضاً :

قربان الاغاني : معرّب عن طاغور

تم طبع هذا الكتاب في الخامس عشر
من شهر تشرين الاول سنة ١٩٦٥

٦٥/١٠/١٥-٣-٧٣٠٨

توزيع المكتبة الشرقية - ساحة النجمة - بيروت

السعر : ١٠٠ غ.



فلاسفة العرب

٤

الغزالي

ربا

الجزء الثاني

الأب يوحنا قمير
أستاذ الفلسفة العربية في جامعة القديس يوسف

الغزالي

◎

دراسة - مختارات

طبعة ثالثة منقّحة

الجزء الثاني

منشورات المطبعة الكاثوليكية - بيروت
توزيع المكتبة الشرقية - ساحة النجمة - بيروت

في حياة الغزالي احداث خارجية ، وتبدل آفـاق ، وفيها هزّات داخلية ، عقلية وروحية . وانا قد عرضنا لكل ذلك في الجزء الاول من دراستنا . اما في هذا الجزء فنرى ما هو اهدأ واوضح ، نرى اهم اراء الغزالي كمتكلم ، ثم كصوفي ، ونتبع كل ذلك بمختارات مناسبة .

المتكلم

كان الغزالي متكلماً حين دافع عن عقائد السنة، عن عقائد مذهبه الرسمي، فهاجم الباطنية، وهاجم الفلاسفة.

وكان متكلماً ايضاً حين عرض عقائد السنة في اهم مسائل الكلام: في ذات الله وصفاته وافعاله، وفي الامامة والنبوة والحشر.

واننا لن نعود على جداله للباطنية، ونرجئ الى دراسة مستقلة جداله للفلاسفة في «تهافته»، مكتفين ببسط ارائه الكلامية «الرسمية» في المسائل التالية:

١ ــ وجود الله

الانسان مجبول في فطرة عقله على معرفة الله. واذا رأى ما في خلق الله من ترتيب محكم، وامر عجيب، اقرّ بضرورة صانع يدبر، وفاعل يدبر ويقدّر.

وللغزالي، غير ذاك، برهان طويل نوجزه لك في ما يلي:

ان لكل حادث سبباً.

وان العالم الجسماني حادث. فله اذًا سبب.

اما برهان حدوث الاجسام فحاصل من انها لا تخلو من الحوادث، من الحركة والسكون. فلو لم تكن الاجسام حادثة، لما كان للحركة والسكون اول، وكان عدد من الحركات لا نهاية له، وهو محال.

اذًا الاجسام حادثة، ولها سبب هو الله.

واذًا قد ضلّ الفلاسفة ، اذ قالوا بقدم العـالم ، لا بل كفروا اذ خالفوا تعليم الشرع في ذلك .

فالغزالي ، كما رأيت ، يستند في اثبات وجود الله الى ما في العالم من نظام عجيب ، والى استحالة عدد من الحركات لا نهاية له ، فينتهي الى محدث اوّل ، هو سبب العالم ومنظمه .

ب ـ صفات الله

في الله ذات وصفات .

وبعض الصفات غير زائد على الذات ، وبعضها زائد .

اما ما ليس زائدًا على الذات ، فاليك بعضه .

ان الله ازلي ، ليس لوجوده اوّل ، ابدي ليس لبقائه اخر .

وان الله واحد ، لا شريك له : ذاك انه لو قـدّر لله شريك ، لكان مثله في كل الوجوه ، وذاك محال ، لأن كل اثنين ضرورة متغايران . ولو جاز وجود اثنين دون مغايرة ، « لجاز ان يشار الى انسان واحد ، ويقال انه انسانان ، بل عشرة ، وكلها متساوية ، متماثلة . »[1]

وان الله مرئي في الآخرة بالابصار ، خلافًا لما زعم المعتزلة ، وان يكن لا جسم له ولا جهة . ذاك انَّا لن نرى الله ، كما نرى الاجسام والالوان ، وانما الرؤية نوع من الادراك ، اتم من ادراك العقل واوضح ، لا يحيلها العقل ، ويقرها الشرع .

٭

واما الصفات الزائدة على الذات فسبع : القدرة ، والعلم ، والحياة ، والارادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام .

ان هذه الصفات ليست هي الذات — كما ادعى المعتزلة والفلاسفة —

---

١) الاقتصاد في الاعتقاد . ص ٣٦

بل هي زائدة عليها ، قائمة بها . ان الله قادر بقدرة ، عالم بعلم ، حيّ بحياة . . . لا قادر بذاته ، عالم بذاته ، حي بذاته . . .

ذاك ان المفهوم من قولنا عالم ، مثلًا ، غير المفهوم من قولنا موجود ، فعلم الله اذًا غير وجوده ، وانما هو صفة زائدة على الوجود . وكذلك مفهوم قولنا قادر غير مفهوم قولنا عالم ، واذًا العلم غير القدرة . فالصفات متميزة بعضها عن بعض ، متميزة عن الذات[1] .

ولنتوقف الان قليلًا على بعض هذه الصفات على القدرة ، والعلم ، والارادة .

علم الله :

اما علم الله فيتسع في رأي الغزالي الى كل معلوم ، موجود او ممكن الوجود ، الى معرفة ذاته ، ومعرفة كل مخلوقاته .

ويخالف الغزالي «الفلاسفة» في شرحهم علم الله :

قال الفلاسفة ان علم الله بالاشياء واحـــد ، لا متغير . واذًا الله يعلم الاشياء ، لا عند حدوثها ، وفي ذاتها ، بل في الازل ، وفي ذاته ،

---

١) الصفات غير متميزة في الحقيقة عن ذات الله ، او بعضها عن بعض ، لانّ كل صفة الهية لا متناهية ، حاوية في الحقيقة لكل ما يحويه الله ، فالقدرة مثلًا ، هي ايضًا علم وارادة وحياة . . . انما اذا نظر اليها العقل من ناحية خاصة ، فيميزها عن الذات ، ويميزها بعضها عن بعض . فهكذا اذا نظر الى القدرة ، من حيث هي قدرة فقط ، ميزها عن الذات ، من حيث هي ذات ، وعن العلم من حيث هو علم . . . فالتمييز اذًا غير حاصل في الله قبل توسط العقل ، حاصل في العقل المحدود اذ ينظر الى اللامتناهي، ناتج عن هذه الوهدة السحيقة بين ادراكنا الضعيف واللانهاية الالهية .

علة كل شيء . ان الفلكي ، وقد عرف نظام الافلاك ، يعرف كل كسوف مستقبل ، وزمان حدوثه . وان الله ، علة العالم ، وعلة ما فيه من نظام ضروري ، يعلم في ذاته ، وفي الازل ، كل سلسلة الاسباب والمسببات التي ستصدر عنه .

ورأى الغزالي ان هذا النوع من العلم يقتصر حتماً على معرفة الكليات ، على معرفة ما هو الانسان المطلق ، وما هي عوارضه وخواصه ، ولا يتسع الى معرفة الاشخاص باعيانها ، الى معرفة زيد بعينه ، مثلًا ، وما يصدر عنه من خير ومن شر . وان هذا استئصال للشرائع الالهية ، وكفر ذميم[1] .

---

١) ان الله يعلم كل شيء ، ويعلمه كما هو . انما علمه غير معلول للاشياء كعلمنا ، وغير استنتاجي . انه علم ازلي ، واحد ، لا يتغير مع الاشياء والازمنة ، لان كل شيء ماثل لديه في نظرة واحدة الحية ، تصل الازل بالابد ، وترى كل ما يجري بينها . واذاً لا يعلم الله الاشياء في ذاتها ، عند حدوثها ، بل في ذاته ، وفي الازل .

وان كيفية علم الله ، اذا تطرقنا الى كل ما تفترضه من مشاكل ، لسر مجهول ، يتلعثم في شرحه اللسان ، ويكلّ العقل . وهل عرفنا بعد كيف نعلم نحن ، فنجاري غرورنا ونشرح كيف يعلم الله ؟ الا اسمعوا ما يقوله القديس اغسطينوس : « لا تنتظروا ، اخوتي ، ان اشرح لكم كيف يعلم الله . شيئاً واحداً اعرف ، وهو انه لا يعلم كالانسان ، ولا يعلم كالملاك . اما كيف يعلم ، فامر اشفق من شرحه ، لاني اعجز من ان اعرفه . »

قدرة الله :

واما قدرة الله ، فاليك بعض اراء الغزالي فيها .

ان الله قادر على كل شيء ، خالق لكل شيء ، للجواهر والاعراض ، للكائنات واعمالها . ويذهب الغزالي الى ابعد استنتاج فيقول بان الله هو السبب الوحيد لكل عمل في الجماد ، ولكل قدرة وفعل في الحيوان والانسان .

ليست النار ، مثلاً ، سبباً لاحتراق القطن ، بل الله هو السبب . ان ملاقاة القطن للنار شرط في الاحتراق ، وقد اتخذها الله سنّة الا يحرق القطن الا عند ملاقاة النار ، ولكنه يستطيع خرق هذه السنة فتكون المعجزات . وان الفلاسفة قد ضلوا ، اذ نسبوا السببية للمحسوسات ، وقالوا بضرورة اقتران السبب بالمسبب ، فنفوا المعجزات ، او جعلوها قدرة طبيعية في بعض النفوس . ان المعجزة فعل الله .

وان الله سبب الاعمال في الحيوان ، والا من اين كان للعنكبوت ، مثلاً ، ان تنسج من البيوت غرائب الاشكال ، وللنحل ان « تشكل بيوتها على شكل التسديس ، فلا يكون فيها مربع ولا مدور »[١] ، ولولد الهرة ان يدب الى ثدي امه وهو مغمض العينين ؟

وافعال الانسان ما شأنها ؟

ان افعال الرعدة مقدورة لله ، لانها تصدر عن الانسان دون سابق ارادة او علم ، ولانه عن دفعها عاجز .

وان الافعال الاختيارية مقدورة ايضاً لله ، لانها حادثة ، وكل حادث خلق له[٢] .

---

١) الاقتصاد في الاعتقاد ص ٤٢

٢) بين افعال الرعدة والافعال الاختيارية فرقان : الفرق الاول هو ان الله يخلق افعال الرعدة دون ان يخلق القدرة عليها ، بينا يخلق القدرة على الافعال الاختيارية قبل ان يخلقها . والثاني هو ان افعال الرعدة لا يسبقها معرفة او تردد ، ويسبق الافعال الاختيارية تردد عقلي في افضل المتقابلين .

ويحلل الغزالي الفعل الاختياري على الوجه التالي : ان العقل يتردد احياناً في خيرية الفعل ويختـــار ، ويظل متردداً حتى يتميز ان الخير في الفعل او الترك ، وحينئذ تنبعث الارادة ضرورة ، ويكون الفعل . واعلم ان حكم العقل نفسه يحدث جبراً . فالانسان مجبور على الاختيار .

والفعل بعد ليس خلقــاً للانسان ، بل لله ، الذي يخلق الفعل بعد القدرة ، والقدرة بعد الارادة ، والارادة بعد العلم .

وما علاقة قدرة الانسان اذاً بالفعل ، وما معنى التكليف ؟

ان الفعل ، في نظر الغزالي ، متعلق بقدرتين ، قدرة الله وقدرة العبد ، على انه متعلق بقدرة الله تعلق المسبَّب بالسبب ، متعلق بقدرة العبد تعلق المشروط بالشرط . ويجادل الغزالي طويلاً في امكان افتراض قدرة للعبد ، لا تتعلق بالمقدور تعلق التأثير والايجاد ، ويقر بانها قدرة بالعجز اشبه ، مهما اضيفت الى قدرة الله .

اما التكليف فغايته التخويف . والخوف سبب لترك الشهوات ، سبب للنجاة ، والله مسبب الاسباب ومرتبها . فاهل الجنة مقودون الى الجنة بسلاسل الاسباب ، وهي تسليط العلم والخوف عليهم ، واهل النار مقودون الى النار بالسلاسل ، وهو تسليط الغفلة والامن عليهم ، وكلهم الى ما يساق مقهور .

وكل ذلك بعدُ عدل من الله ، وليس في الامكان احسن منه او اتم . لولا الليل لما عرف قدر النهار ، ولولا المرض لما عرف قدر الصحة ، وكذلك لولا النار لما عرف اهل الجنة قدر الجنة . ما لم يخلق الناقص ، لم يعرف الكامل ، فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعاً .

فالغزالي ، كما رأيت ، يتفق والفلاسفة على القول بالجــبر ، وان اختلفوا في التعليل .

وانه يخالف المعتزلة ، الذين قالوا بحرية الانسان ، وبان فعله خلق له وحده ، لا علاقة به لله[1].

ارادة الله :

واما ارادة الله فقد اختلف الغزالي والفلاسفة في شرح تعلقها بالمراد ، او ايجاد العالم بنوع عام . قال الفلاسفة ان الله بارادة قديمة اوجد العالم ، فالعالم معلول قديم . وقال الغزالي ان الله بارادة قديمة اوجد العالم في الوقت الذي وجد فيه ، وان الارادة قد ميزت وقتاً ما عن غيره من الاوقات المتماثلة ، لان الارادة صفة من شأنها تمييز الشيء عن مثله خلافاً لما زعم الفلاسفة ، فالعالم حادث بارادة قديمة .

وجدال الغزالي للفلاسفة يطول ، فانه يستغرق فصولًا من كتاب « تهافت الفلاسفة » .

وان مسألة الارادة هذه هي مسألة قدم العالم وحدوثه ، وكل ما دار حول هذه المشكلة من جدل . ولب الجدال يعود الى هذا : الفلاسفة يقولون بارادة قديمة ، وبالتالي بفعل قديم ، يستحيل تراخي المفعول عنه ، والغزالي لا يحيل تراخي المفعول عن الفعل ، انما يحيل وجود عالم قديم ،

١) اما نحن فنرى ان المخلوقات اسباب حقيقية لافعالها ، وان الله سبب حقيقي لهذه الافعال . لا معنى لموجود لا فعل له ، ولا وجود الا بايجاد الله . ان فعل الانسان معلول له ، ومعلول لله ايضاً ، انما على تفاوت في السببية ، فالله يعمل كعلة اولى ، والانسان كعلة معلولة . ان فعل المخلوق تابع لوجوده : ان وجودنا من الله ، به حدث ، وبه يدوم ، وان وجودنا ليس وجود الله . كذلك فعلنا ، فانه فعل الله ، وفعلنا ايضاً . اما اذا شئت ان تعرف كيف يتوارد سببان على فعل واحد ، وكيف يظل الفعل الانساني حرًّا على الرغم من ايجاد الله له ، فنظنك تجاوز حدّك . ذاك ان الايجاد الالهي خارج عن نطاق مداركنا ، لا جارحة تحسه ، او وجدان يخبره ، وان الكيفيات الالهية اجمالًا تفوق ادراكنا المحدود ، فاكتفِ بطرفي السلسلة بان تعرف ان الله خالق كل شيء ، وبان الانسان حرّ ، خالق لاعماله .

لانه يحيل وجود حوادث لا اول لها ، ولا نهاية لعددها . وما ننوي الان ان نتوقف على هذه المسألة .

ج ـ افعال الله

يتوقف الغزالي ، في الكلام عن افعال الله ، على صفة اساسية ، هي حق التصرف المطلق في عباده ، او ما يمكن تسميته التجويز. فهكذا يجوز لله :

١ — الّا يخلق الخلق ، واذا خلقهم الّا يكلّفهم. وقالت طائفة من المعتزلة بوجوب الخلق ، والتكليف بعد الخلق .

٢ — ان يكلف العباد ما يطيقون وما لا يطيقون . وذهبت المعتزلة الى انكار ذلك .

٣ — الّا يراعي الاصلح لعباده ، بل له ان يفعل ما يشاء ، ويحكم بما يريد . وقالت المعتزلة برعاية الاصلح .

٤ — الّا يثيب على طاعة ، والّا يعاقب على معصية ، بل ان شاء اثاب ، وان شاء عاقب ، ولا يبالي لو غفر لجميع الكافرين ، وعاقب جميع المؤمنين ، وان الصفح بالله اولى . وقالت المعتزلة بوجوب ثواب الطاعة وعقاب المعصية .

وحجة الغزالي في كل ذلك ان الواجب والحسن والقبيح الفاظ اخطأ الناس معناها .

ان الواجب ما في تركه ضرر ، والحسن ما وافق غرض الفاعل ، والقبيح ما نافى ذاك الغرض. وان الله مأمن من الضرر، منزه عن الاغراض ، واذاً لا واجب عليه ، ولا حسن في حقه او قبيح[1] .

---

١) ونحن نرى ان هذه التحاديد ناقصة ، فاسدة .

اجل ان الله خلق العالم مختارًا ، وانه راعى الصالح ، لا الاصلح ، وانما هناك

د ــ النبوة

النبوّة طور وراء العقل ، نبصر فيه غيباً ، ونرى آتياً ، ونطّلع على مجهول . وان تشك في النبوة ، فلك عليها قرائن وادلة .

ان النائم يدرك الغيب ، والنوم انموذج من خاصية النبوة .

وان علم الطب والنجوم لأبعد من ان ينالها عقل ، وانما نيلا بالهام ، وعلمها انبياء !

وان ادوية القلوب المرضى – كادوية الاجسام – لا تدرك ببضاعة العقل ، بل بنور النبوة ، بما سنه الانبياء من عبادات ، ويرشدون اليه من تقى .

وان معجزات الانبياء ، اذا قارنها في النبي خلق سليم ، وهدي مصيب ، واذا رافقتها القرائن ، وسندتها الدلائل ، تورث في النفس يقيناً ، وتقوى على ما يوردون ضد المعجزات من اشكال الكلام ، ومن شبهات السحر والاضلال .

ولك الى اثبات النبوة سبيـــل آمن من كل ذاك ، من كل معجزة وقرينة ، وكأنك تشاهد بالعين ، وتأخذ باليد ، هي سبيــل الذوق عن طريق سلوك الصوفية :

ان الالهام الصوفي نوع من الوحي ، اذا بلغتَه ، ادركت جوهر النبوة . وان الفرق بين النبي والصوفي هو ان النبي يرى بوضوح ما يلمحه الصوفي لمحاً . ان الالهام اضعف من الوحي ، كما ان الرؤيا اضعف من الالهام . الوحي حلية الانبياء ، والالهام حلية الاولياء . على ان الوحي

اشياء تقضي بها طبيعة الله ، وطبيعة الانسان . يأبى العقل ان يكون هذا الانسان الحر العاقل ، والّا يكون مقيدًا بطبيعته العاقلة ، بخير يعمله ، وشر يتقيه ، نزل وحي بذلك ام لا . ان الله ، حين يخلق الانسان ، يريده انسانًا يعمل ما يقتضيه الكمال الانساني نفسه ، ولا بد اذًا من ثواب وعقاب . وان ارادة الله هذه لارادة ضرورية ، ناتجة عن حكمة الله في خلقه . واذًا التكليف واجب ، والثواب والعقاب واجبان . اما تكليف الخلق ما لا يطيقون فناف لكمال الله ، مناف للعقل ، وانما لحماقة لا يقدم عليها بشر ، فكيف بالله العادل الحكيم ؟

قد انقطع ، وباب الرسالة انسدّ ، بينما باب الالهام لا ينسد ، ومدد نوره لا ينقطع .

واذاً للانسان الى المعرفة طريقان : بشري ورباني . اما الطريق البشري فهو طريق العقل ، يسير على نوره ، وينمو بالتعلم والتفكر . ولكن العقل عاجز في ادراكه الحق ، عرضة للضلال ، هدف للشبهات ، غير واثق من ذاته . وهو ، فوق ذلك ، لا يقوى على هداية ، او يستطيع للقلوب شفاء ، وعن المعاصي زجرًا ، وللاهواء ردعاً . وبالتالي لا يستطيع العقل بذاته ثقة ، وللحق ادراكاً ، والى الخير سبيلًا ، واذًا هو في حاجة الى نور الهي ، يعيد اليه الطمأنينة ، ويهديه الصواب ، ويرشده التقى .

هـ ــ الحشر

قبل البحث في حشر الاجساد ، يثبت الغزالي هذا المبدأ : اذا اثبت الشرع امرًا ، ورآه العقل جائزًا ، او لم يقضِ باستحالته ، وجب التصديق به . اما ما اثبته الشرع ، واحاله العقل ، فيجب تأويله ، لان الشرع لا يعلم محالًا .

اما الحشر فقد اثبته الشرع ، ولا يقضي العقل باستحالته ، لان ما امكن خلقه ، يمكن اعادته . وعليه يجب التصديق بحشر الاجساد ، ويجب تكفير الفلاسفة الذين انكروه .

الصوفي

التصوف هو السيرة العملية التي انتهى اليهـا الغزالي ، ورأى ان يسلكها ويدعو اليها .

وقد وصف هذه السيرة في كتب عديدة ، اهمها كتاب احياء علوم الدين ، ولهذا نرى ان نعتمد هذا الكتاب في عرض تصوف الغزالي ، دون ان نهمل باقي كتبه ، فندرس تباعاً :

١ ــ العبادات

العبادات هي الفروض الاسلامية : الطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصيام .

وكان الفقه يبحث هذه الفروض ، ويستقصي شروطها .

على ان الغزالي يرى ان الفقه اقتصر على وصف الاعمال الظاهرة ، وفاتته الروح . قال في حديثه عن الصلاة : « وقد استقصينا ، في فن الفقه ،... اصولها وفروعها ... ونحن الآن ... كاشفون عن دقائق معانيها الخفيّة ، في معاني الخشوع والاخلاص والنيّة ، ما لم تجرِ العـادة بذكره في فن الفقه[١].»

لهذا يعود الغزالي الى هذه الفروض ليبعث فيها الحياة ، ويبث فيها الروح ، فلا تبقى مجرد اعمال ظاهرة ، اقحلتها العادة ، واقتصر عليها المؤمنون .

---

١) الاحياء : ١ : ص ١٠٨

واذاً ليست الطهارة نظافة خارجية ، ونوعاً من الزينة ، بل هي ، في مفهومها الديني، تطهير الجوارح عن الاثم، وتطهير القلب عن الرذائل، وتطهير السرّ عما سوى الله .

واذاً ليست الصلاة تحريك لسان بكلام ، وحركة جسم بركوع ، بل هي حضور قلب ، وفهم الفاظ ، وهي تعظيم لله ، وهيبة منه ، ورجاء لثوابه .

وقل مثل ذلك في باقي الفروض ، في الزكاة ، والحج ، والصيام .

٢ ــ العادات

عدا الفروض الشرعية الخمسة ، يأتي المؤمن اعمالاً بشرية لا تحصى ، عليه ان يستوحي في القيام بها ايمانه ، ويهدف الى اخرته .

فالاكل ، مثلاً ، واجب ديني ، لانه ضروري لحفظ البدن ، على ان الاغراق فيه امر محظور ، لانه دافع للشهوة ، مثير للاهواء .

والزواج له فوائده وله آفاته . اما الفوائد فبقاء النسل ، ودفع غوائل الشهوة ، وترويح النفس بالمباح ، وتدبير المنزل ، واجر القيام باعباء الاسرة . واما الافات فطلب المال الحرام ، والقصور عن احتمال اذى النساء ، والاشتغال بالاهل عن الله . وعلى المؤمن اذاً ان يقدم على الزواج ان زادت في حقه الفوائد ، وان يحجم عنه ان زادت الآفات .

وكسب المال امر مباح ، على ان يسلك المؤمن الى ذلك السبل المشروعة ، فيمتنع عن كل حرام في التجارة والعقود ، في البيع والاجارة والشركة والقراض .

والسماع يكون مباحاً ومحظوراً . هو محظور ان يثر كامن الشهوات ، وهو مباح لمن يستلذ الصوت الحسن ، او يستعمله طريقاً الى الوجد الصوفي .

وكذا سائر الاعمال البشرية لا يقوم بها مؤمن الا اذا اتفقت وشرائع دينه، وهدفت الى طاعة ربه .

٣ ـ المهلكات

في ربعَي العبادات والعادات تعرّض الغزالي لمـا هو فرض على كل مؤمن ، واساسٌ لكل كمال .

واما في ربعي المهلكات والمنجيات فقد تخطّى ذلك ، فولج القلب يستقصي عيوبه وفضائله ، ويسلك به الى ذرى الكمال[1].

اما معرفة العيوب فيصل اليها المريد باسترشاد شيخ بصير ، او صديق متدين ، كما يكتشفها على السنة اعدائه .

---

١) وان الغزالي يمهد لذلك بكتابين في عجائب القلب ، ورياضة النفس ، يحلل فيها نفسية الانسان ، وما يستطيعه من كمال ويعترضه من عقبات .

الانسان بقلبه والقلب هو الروح ، او النفس ، او العقل ، اي تلك اللطيفة الروحانية ، المدركة للاشياء : ان القلب هو « العالم بالله ، وهو المتقرّب الى الله ، وهو العامل لله ، وهو الساعي الى الله ، وهو المكاشف بما عند الله ولديه » (الاحياء ٣ : ص ٢)

القلب في الجسد كملك في مدينة ، يدير شؤون الجسد ، ويخضع لارادته جنود . وان جنود القلب حواس واعضاء ، واهم شهوة وغضب ، وخيال وفكرة وذاكرة ، « وانما افتقر القلب الى هذه الجنود ، من حيث افتقاره الى المركب والزاد لسفره ، الذي لاجله خلق ، وهو السفر الى الله . » (الاحياء : ٣ : ص٥)

وللقلب عملان ، اكتساب علم ، وتحصيل كمال . اما العلم فيناله بتعلم بشري ، ويناله بالهام الهي . وان الالهام لا يحصل الا بتطهير القلب : « القلوب كالاواني فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء . فالقلوب المشغولة بغير الله ، لا تدخلها المعرفة بجلال الله » (الاحياء : ٣ : ص ٧)

وان مبدأ الاعمال الخواطر ، ان دعت الى الخير كانت الهاماً صادرًا عن ملاك ، وان دعت الى الشر كانت وسواساً صادرًا عن الشيطان . وان القلب قابل ، على

وعيوب النفس هي : شهوة البطن، وشهوة الجسد، وآفات اللسان، والغضب، والحقد، والحسد، والبخل، وحب الجاه، والرياء، والكبر والعجب، والغرور.

يتعرض الغزالي لهذه العيوب واحدًا واحدًا، فيحدد لك ماهيتها واسبابها، ويبين لك كيف تروض النفس على معالجتها واستئصالها، وما يجب ان تمارسه من تمارين، وتقوم به من تأملات، ويورد لك آيات من القرآن، واحاديث منسوبة للنبي، واقوالًا لمشاهير المتصوفة

وانه لبحث طويل حقًا، يضيق عنه مثل هذا الدرس، ان نفصل لك ما قاله الغزالي في عيوب النفس عيباً عيباً. ولنعرض، كمثال، تحليله لشهوة البطن :

ان شهوة البطن، في نظره، اصل كل العيوب. بها اخرج آدم وحواء من الجنة، ومنها تنبعث شهوة اللذة الجسدية. ويتبع هاتين الشهوتين شهوة المال والجاه، وسيلة التمتع بهما. ويتشعب عن طلب المال والجاه آفات كثيرة، كالكبر والرياء، كالحسد والحقد، ومنبع كل ذلك البطن.

وبعد ان يورد الغزالي احاديث كثيرة في فضيلة الجوع، واقوالًا عن الانبياء والاولياء، يعدد فوائده، فاذا هي للبدن صحة، وللعقل صفاء، وعلى القناعة والصدق عون، واذا بالجوع تكسر شهوات المعاصي،

التساوي، للالهام والوسواس، متجاذب بين الاثنين» «والتطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة القلب دائم . . . واكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين.» (الاحياء : ٣ : ص ٢١)

وان الشهوة والغضب، وما يتشعب عنها من حب الغنى، وشهوة المأكل، وطلب الزينة، والتعصب للمذهب، لابواب الشيطان الى القلب. وان على الانسان ان يجاهد لكي يروض جسده وحواسه، ويضبط شهوته وغضبه، فيطهر قلبه ويصفو ويبلغ علماً وكمالًا. وان رياضة النفس لامر واجب، وان اصلاح الاخلاق لشيء ممكن.

ويسهل السهر والمواظبة على العبادة ، ويذكر الانسان بلاء الله وعذابه.

وينتهي الغزالي الى كيفية رياضة المريد على الجوع ، فيتكلم عن كمية الطعام ، ونوعه ، وعن اوقات تناوله . على المريد ان يقلل من كمية الطعام ، فلا يأخذ اكثر مما يحتاج اليه لقيام جسده وبقاء قواه ، وليكن ذلك على التدريج ، لان من اعتاد الاكل الكثير ، وانتقل دفعة الى القليل ، لم يحتمله مزاجه . وعليه ان يمتنع عن شهيّ الطعام ، ولذة اللحوم ، كي لا يسكن الى نعيم الدنيا ، ويسعى وراء المعاصي . وان اقل ما يُطلب منه الاقتصار في اليوم على اكلة واحدة ، واكثر ما يطلب منه ان يطوى ثلاثة ايام . وان بعض سالكي الطريقة يطوون ثلاثين يوماً ، واربعين ، وخمسين .

ويحذر الغزالي المريد من الرياء ، من الامتناع عن الاكل مع الجماعة للاكل في الخلوة ، كما يحذره من خطر العجب ، وحب الاشتهار بالتعفف وفضيلة الجوع . وانه يكون حينذاك قد خالف شهوة الاكل ، واطاع شهوة الجاه ، وهذا كمن هرب من عقرب ، وفزع الى حيّة .

نكتفي بهذا المثل ، وندعوك الى مطالعة ما كتبه الغزالي في باقي عيوب النفس ، فانك واجد فيه نفعاً كثيراً .

٤ ـ المنجيات

رأينا الى الآن ما نفح الغزالي من روح دينية في فروض الشرع ، وآداب الحياة ، ثم رأينا كيف دعا الى طهارة القلب وصفائه برياضة النفس ومجاهدة الاهواء . وها هو يطفر بالصوفي الى اقصى الكمال ، الى عرض الفضائل او المقامات الروحية التي تنتهي به الى حب الله والفناء فيه .

اهم هذه المقامات : التوبة ، والصبر ، والشكر ، والخوف ، والرجاء ،

والفقر ، والزهد ، والتوحيد ، والتوكل ، والمحبة .

ينتظم كل مقام من ثلاثة امور : من علم ، وحال ، وفعل .

اما العلم فمن شأن العقل ، به يعرف ما هو المقام ، وما الداعي الى طلبه ، وكيف يمكن الوصول اليه .

حتى اذا تمّ هذا العلم ، انبعثت في النفس عاطفة ، وثار في القلب شعور ، اي مالت النفس الى ما رآه العقل من خير . وهذا هو الحال.

ومتى حصل للانسان العلم والحال،نتج عنهما ارادة وقصد،فكان الفعل .

اذاً العلم يولد الحال ، والحال يدفع الى العمل ، « والاول موجب للثاني ، والثاني موجب للثالث ، ايجاباً اقتضاه اطراد سنة الله .»[١]

خذ مثلاً ، التوبة . فالعقل يرى عظم ضرر الذنوب ، وكونها حجاباً يفصله عن الله محبوبه . والقلب يتألم لفوات المحبوب ، ويندم على ما صدر منه . والارادة تعزم على ترك كل ذنب في الحال والاستقبال . فما رآه العقل علم ، والندم حال ، وقصد ترك الذنوب فعل[٢].

٥

ونردد هنا ما قلناه ، حين تكلمنا عن عيوب النفس ، من ان هذا الدرس يضيق عن بحث المقامات الصوفية مقاماً مقاماً . على اننا نورد مثلين ، فنوجز تحليله للتوكل ، ثم للمحبة .

---

١) الاحياء : ٤ : ص ٣

٢) وان الغزالي يرى امكان التسلسل المعاكس ، اي ان يثير الفعل الشعور ، وان يقوي الشعور ثقة العقل . قال الغزالي : « ان المواظبة على الطاعات لها تأثير في تأكيد طمأنينة النفس الى الاعتقاد التقليدي ، ورسوخه في النفس . وهذا امر لا يعرفه الا من سبر احوال نفسه ، وراقبها في وقت المواظبة على الطاعة ، وفي وقت الفترة ، ولاحظ تفاوت الحال في باطنه . . . فان من يعتقد الرحمة في قلبه على يتيم ، فان اقدم على مسح رأسه ، وتفقد امره ، صادف في قلبه ، عند ممارسة العمل ، بموجب الرحمة ، زيادة تأكيد في الرحمة . ومن يتواضع بقلبه لغيره ، فاذا عمل بموجبه ،

التوكل هو اعتماد القلب على الوكيل ، وله في القوة والضعف ثلاث درجات : الاولى ان تتكل على الله اتكالك على الوكيل . الثانية ان تتكل عليه اتكال الطفل على امه ، الذي لا يعرف غيرها ولا يفزع الى سواها . والثالثة ان تكون بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل ، لا تفزع اليه ولا تسأله ، لانك تعرف انه بحاجاتك اعلم، وعلى قضائها احرص .

والمحبة هي غاية المقامات وذروتها . رأى بعض العلماء ان محبة الله غير ممكنة ، فخالفوا بذلك شواهد الشرع وشواهد العقل . ان الشرع قال بمحبة الله ، بدليل الآية : « يحبهم ويحبونه » ، والآية الاخرى : « والذين آمنوا اشد حباً لله .» اما العقل فيرى ان اسباب الحب خمسة : نحب وجودنا وبقاءنا ، ونحب من يحسن الينا في ما يعود الى هذا الوجود وبقائه ، ونحب من يحسن الى الناس ، ونحب كل جميل في ذاته، ونحب من بيننا وبينه مناسبة خفية في الباطن . والحال ان هذه الصفات قد اجتمعت في الله ، وبلغت فيه اقصى درجات الكمال ، لان منه كل

ساجداً له ، او مقبلًا يده ، ازداد التعظيم والتواضع في قلبه . » (الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٠٣)

واستناداً الى هذا المبدأ ، يرى الغزالي ان ما يقوم به الصوفيون من حركات خارجية مفيد لاثارة الوجد ، فالوصول الى مشاهدة الله . قال الغزالي ، اثناء كلامه عن آداب السامع : « ان رقص او تباكى ، فهو مباح ، اذا لم يقصد به المراآة ، لان التباكي استجلاب للحزن ، والرقص سبب في تحريك السرور . » وقل مثل ذلك في الذكر والسماع ، فان مراجعة اسم الله او احدى صفاته ، وان الغناء بشعر صوفي او سماعه ، لافعال جسدية تمهد لحالة الوجد ، وتساعد عليه .

واذاً الشعور مسبَّب بين سببين ، هما العلم والعمل . واذاً حب الله ، هدف الصوفي الاقصى، هو رهن ايمان وتقى ، رهن تأمل روحي ورياضة نفس ، رهن تفكر في صفاء القلب ، وعمل على ايجاد هذا الصفاء . وقد الحّ الغزالي كثيراً على الجمع بين العلم والعمل .

وجود ، وبه كل بقاء ، ومنه كل احسان ، وفيه اكمل جمال ، وبينه وبين الانسان مناسبة باطنة . فحب الله اذاً ممكن ، والله احق كائن بالحب .

نكتفي بهذين المثلين ، وندعوك الى مطالعة ما كتبه الغزالي في مقامات الكمال ، لترى ما عنده من غنى فكري ، ومن تحليل نفسي دقيق .

ـ

على انه من الضروري ان نرى ما يلجأ اليه الصوفي من تمارين صوفية ، وما ينتهي اليه في ذروة صعوده .

اما اهم التمارين الصوفية فثلاثة :

١ — الذكر : هو الخلو بالنفس ، وتفريغ القلب ، والاقبال على الله بمراجعة اسمه ، او احدى صفاته ، باللسان الى ان يكلّ ، وبالقلب الى ان يمحّي كل لفظ ، ولا يبقى سوى المعنى .

٢ — السماع : هو الغناء بشعر يحرّك في القلب حبَّ الله ، والقرب منه .

٣ — الوجد : هو حالة يثمرها السماع — او الذكر — ، ترافقها حالات نفسية كالشوق والخوف ، والحزن والسرور ، وترافقها حركات جسدية كالرقص والتصفيق وتمزيق الثياب ، او كالبكاء والأنين ، وترافقها مكاشفات ومشاهدات .

اما ما ينتهي اليه الصوفي في وجده ، فاثنتان :

١ — الفناء في الله : الصوفي يشاهد الله ، فيتجلّى له من لطائفه ما لا يوصف ، ويغيب هو عن نفسه ، وعن كل ما يحيط به ، وكأنه والله

واحد . على ان هذه الحالة لا تتجاوز مشاهدة الله ، والقرب منه ، وكل قول بالحلول خطأ . وهكذا شجب الغزالي من الصوفية ما لاجله اضطهدت السنة كبار المتصوفين كالبسطامي ، والحلاج وغيرهما . ولاجل ذلك ايضاً شجب النطق باقوال الشطح – من مثل انا الحق ، او سبحاني ما اعظم شأني – وان عذر من غلب عليه السكر ، فافقده عقله ، وانطقه بها .

٢ – الالهام الصوفي : القلب كالمرآة ، ان صفا من كل عيب ، وبلغ الله بالحب ، انعكست فيه صور اللوح المحفوظ – وهي صور كل موجود – فرأى كلّ شيء ، وعرف الماضي والحاضر والمستقبل .

والقلب كحوض محفور . انت تستطيع ان تملأ الحوض بماء تسوقه اليه من الخارج ، او بماء اصفى وادوم واغزر تفجّره بالحفر في اسفل الحوض . وهكذا تساق العلوم الى القلب بواسطة انهار الحواس ، او تتفجر في اعماقه الهاماً بواسطة الخلوة والعزلة وتطهير القلب . والالهام يغني عن كل علم شرعي او عقلي ، ويولي معارف اخرى ايضاً .

فقلب الصوفي اذاً هو ذاك الاناء المصطفى الذي نقّاه الله من الارجاس ، وزانه بالاصباغ والالوان ، ليسكب فيه خمرة حبه ، ويتجلى له في بهائه ، ويعكس فيه لآلئ نوره .

والصوفي هو ذاك الانسان المختار الذي جاز حدود النوع البشري ، ونهل من منبع الحياة ، فاذا هو يحس ما لا يحس الناس ، ويرى ما لا يرون ، واذا هو دفق حب تغمر مجاريه النفوس ، وسبيل الى الحق يهتدي الناس بهديه .

وان الكمال الصوفي لذروة ما وصل اليه الانسان ، وخير ما يلجأ اليه الناس لينجوا من عبودية الاهواء ، وينعموا باسنى جمال واصفى حق .

حكم عام

رأينا الغزالي يشكّ في ايمانه فعقله، ثم يخرج من تلك الشكوك. ورأيناه متكلماً اشعرياً، ومتصوفاً يسبر القلوب. واهملناه في «تهافت الفلاسفة»، في ما كثّرهم فيه وبدّع، مرجئين ذلك الى دراسة مستقلة.

ولعلنا نشرح كل تلك المواقف ان نحن نتبيّن موقفه من ثلاثة: من العقل، ومن الدين، ومن التصوف.

١ — موقفه من العقل

رأينا، في المنقذ، كيف وصل الغزالي الى الشكّ التام في قدرة العقل. على ان هذا الشك لم يدم سوى شهرين، واياً كانت الاراء في تاريخية هذا الشك، او في كيفية الخروج منه، فأثره غير بادٍ في اراء الغزالي، واخطر منه موقف الغزالي من العقل قبل شكّه وبعده.

نشأ الغزالي اشعرياً، وبحكم هذه النشأة كانت ثقته بالعقل دون ثقة الفلاسفة، يحدّ من قدرته، ويستوحي النبوّة في ما يجوز طاقاته. وترسّخت هذه النظرة، بعد اهتداء الغزالي الى التصوف، اذ اصبح يستوحي ازاء النبوة الالهام الصوفي نفسه، فيجعل هذا الالهام ابعد آماداً من معرفة العقل، وارسخ يقيناً.

على ان الغزالي ما حطّ من شأن العقل الى القدر الذي رأته الباطنية، الى حد القول بضرورة امامٍ معصوم يهدي الى الحقّ، ويبتّ في الخلاف.

وانطلاقاً من هذه النظرة نفهم كيف ان الغزالي هاجم الفلاسفة والباطنية معاً : هاجم الفلاسفة لانهم اسرفوا في تمجيد العقل ، فساووا الفيلسوف قدرة بالنبيّ واستغنوا عن الوحي في بحثهم عن الحق . وهاجم الباطنية لانها اسرفت في الحط من قدرة العقل ، حتى دعت الى الايمان بضرورة امام معصوم . اما هو فلا يثق بالعقل ثقة الفلاسفة ، فيعجّزه عن اثبات روحانية النفس ، مثلا ، ومعرفه ذات الله ، ويعجّزه حتى عن اختراع الطب النجوم . وهو لا يعجّزه تعجيز الباطنية له ، فيراه قادراً على فهم ما يعلّم الوحي ، مستعينا على هذا الفهم بالمنطق ، مستغنياً عن امام معصوم .

هي هذه النظرة الى العقـل تشرح لنا جلّ ما كتب الغزالي ضدّ الباطنية ، وجلّ ما كفّر فيه الفلاسفة وبدّع ، وجلّ ما اتى عنده من دعوة الى الايمان بالنبوة ، والى اعتناق التصوف ، والاهتداء بالالهام .

٢ — موقفه من الدين

لا ريب ، عندنا ، في ان الغزالي شك في صحة ايمانه شكاً عنيفاً قاده اليه ما رآه من تعدد الاديان والمذاهب ، ومن التقليد في اعتناق هذه وتلك ، وقادته اليه شبهات في العقائد وصحبة اقران سوء ، كما اكّد في كتابه « جواهر القرآن » .

لا ريب في ان الغزالي شك في ايمانه ، وذلك لسببين : الاول تأكيده هذا الشك مرات ، ودعوته اليه كباب هدى الى الحقّ ، وما كان الغزالي الصوفي ليفعل هذا لو لم يشكّ حقاً . والثاني هو ما اقدم عليه الغزالي من سياحة ، وانتهى اليه من تصوف ، ويعسر شرح هذا التبدل في حياتـه دون ازمة فكرية او نفسانية .

واذا استندنا الى اقوال الغزالي ، نرى انه بدأ يشكّ ، وهو لما يبلغ

العشرين ، وبلغت شكوكه الذروة اثناء تدريسه في بغداد ، واهتدى الى التصوف وما فارقه كلُّ ريب .

شكَّ الغزالي في ايمانه ، ولكن كيف خرج ؟ نحن لا نطمئن الى حصره الحق في اربع فرق ، كما جاء في المنقذ ، والى نقدٍ لهذه الفرق انتهى الى التصوف : ذاك ان اكثر هذا النقد يفترض الايمان بالاسلام ، فكيف نجزم بان الغزالي شك في ايمانه ، ثم نطمئن الى نقد مؤمن ؟

ونقدّر ان عودة الغزالي الى ايمانه تمت بشكل شعوري لا واعٍ ، تحت تأثير رواسب التقليد ، ووطأة التربية والبيئة ، بل ووطأة التعب والمرض ومطالعة الصوفيين ، وكم شاكٍ في ايمانه عاد الى اليقين دون ان يدري لماذا ، وكيف ؟ يؤيد رأينا هذا ما قاله الغزالي عرضاً في كتاب المنقذ : « وكان قد حصل معي - من العلوم التي مارستها ، والمسالك التي سلكتها ، في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية - ايمانٌ يقينيّ بالله تعالى ، وبالنبوة ، وباليوم الآخر . فهذه الاصول الثلاثة من الايمان كانت رسخت في نفسي ، لا بدليل معيّن محرّر ، بل باسبابٍ وقرائن وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها . » فهذه الاسباب والقرائن والتجاريب غير نقده للفرق ، واقرب الى ما افترضناه من اسباب .

٣ — موقفه من التصوف

تصوّف الغزالي ، بعد ازمــة شكوكه في بغداد ، والم يستطع ان يذهب في تصوفه الى حيث دعاه ، لأن دعوات الاطفال عادت به من سياحته ، ودعوة السلطان عادت به الى التعليم .

ولكنّ الغزالي كتب في التصوف ما ينمّ عن تأمل طويل ، وشعور دينيّ عميــق فبعث في عبادات الاسلام حيــاةً جنّفتها العادة ، واستلهم

الايمان في كل ما يأتي من عمل ، وغاص الى اغوار القلب البشري يستأصل منه عيوبه ، يستأصل شهوة البطن والجسد ، ومهلكات الحقد والبخل والرياء . . . ، ليُحلّ في هذا القلب منجيات الفقر والرجاء ، والمحبة . . . ويعدّه هكذا لتجلّي الله له ينعم بمرآه ، ويهتدي بالهامه .

ويمتاز تصوف الغزالي بالاتزان ، بالتقيد بالشريعة عقيدة وسلوكاً . قال الغزالي ، في رسالته ايها الولد : « ينبغي لك ان يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع ، اذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة ، وينبغي لك ان لا تغتر بالشطح وطامات الصوفية . » وانطلاقاً من هذه القاعدة :

١ــ يرى الغزالي ان الحالة الصوفية قربُ من الله ومشاهدة ، لا وحدة وجود بين الصوفي والله ، كما جاء على لسان الحلاج والبسطامي وغيرهما. جاء في المنقذ : « وعلى الجملة ، ينتهي الامر الى قرب يكاد يتخيل منه طائفةٌ الحلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ . »

٢ــ يتّهم الغزالي بالضلال عن التصوف من ادّعى ان عبادات الاسلام فرض العامة ، لا فرض الصوفي الذي استغنى بالحبّ عن كل عبادة ، او من ادّعى ان الله قد يبيح للصوفي ما يحرّمه على الباقين من نظر الى المرد او حب الوجه الحسن . قال الغزالي في المنقذ ، في معرض ذكر الاسباب التي أدّت الى ضعف الايمان بالنبوّة : « وقائل ثالث يدّعي التصوف ، ويزعم انه قد بلغ مبلغاً ترقى عن الحاجة الى العبادة . وقائل رابع يتعلل بشبهةٍ اخرى من شبهات اهل الاباحة . وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوّف . »

٣ــ ينهى عن ارتكاب الحرام طلباً للسقوط في اعين الناس ، والسلامة من الجاه – كما فعلت الملامتية – فينصح من يبغي التحرر من حب الجاه « بمباشرة افعال يُلام عليها . . ولا يجوز له ان يقدم على محظور لاجل ذلك ، بل له ان يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس . »

٤– ينهى عن التمادي في حركات الوجد ، فينصح بالهدوء والسكون، اثناء السماع ، وبالامساك عن التصفيق والرقص وتمزيق الثياب . . .

ان الغزالي الصوفي ما حاد عن مذهبه الاشعري ، ولا جارى غلاة التصوف في ارائهم واعمالهم ، وفي شذوذهم وشعوذاتهم ، فظل منهلا روحيا سليما ترقى به نحو الكمال ، ويقيك حيل الطبيعة ، ومزالق الهوى .

بين العقل والنقل

الحمد لله ، الذي اجتبى من صفوة عباده عصابةَ الحق واهل السنة ،... وعمر افئدتهم بانوار اليقين ، حتى اهتدوا بها الى اسرار ما انزله على لسان نبيّه ،... واطّلعوا على طريق التلفيق[1] بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول ، وتحقّقوا ان لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول ، وعرفوا ان من ظنّ من الحشوية وجوب الجمود على التقليد واتبـاع الظواهر ، ما اتوا به الا من ضعف العقول وقلة البصائر ، وان من تغلغل من الفلاسفة وغلاة المعتزلة في تصرف العقل حتى صادموا به قواطع الشرع ، ما اتوا به الا من خبث الضمائر . فميل اولئك الى التفريط ، وميل هؤلاء الى الافراط ، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط ، بل الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد ، والاعتماد على الصراط المستقيم ، فكلا طرفي قصد الامور ذميم .

(الاقتصاد في الاعتقاد : ص ٢)

الناس والحق

ان الناس اربع فرق :

الفرقة الاولى : آمنت بالله ، وصدقت رسوله ، واعتقدت الحق واضمرته ، واشتغلت اما بعبادة واما بصناعة . فهؤلاء ينبغي ان يتركوا وما هم عليه ، ولا تحرّك عقائدهم ...

---

١) لفّق الشقّتين : ضمّ احداهما الى الاخرى فخاطهما .

الفرقة الثانية : طائفة مالت عن اعتقاد الحق ، كالكفرة والمبتدعة . فالجافي الغليظ منهم ، الضعيف العقل ، الجامد على التقليد ، الممتري على الباطل من مبتدأ النشوء الى كبر السنّ ، لا ينفع معه الّا السوط والسيف ، فاكثر الكفرة اسلموا تحت ظلال السيوف ، اذ يفعل الله بالسيف والسنان ما لا يفعل بالبرهان واللسان[1] . . .

الفرقة الثالثة : طائفة اعتقدوا الحق تقليدًا وسماعًا ، ولكن خصّوا في الفطرة بذكاء وفطنة ، فتنبهوا من انفسهم لاشكالات تشككهم في عقائدهم ، وزلزلت عليهم طمأنينتهم . . . فهؤلاء يجب التلطف بهم في معالجتهم ، باعادة طمأنينتهم ، واماطة شكوكهم ، بما امكن من الكلام المقنع ، المقبول عندهم . . .

الفرقة الرابعة : طائفة من اهل الضلال ، يُتفرس فيهم مخائل الذكاء والفطنة ، ويتوقع منهم قبول الحق بما اعتراهم في عقائدهم من الريبة ، او بما يليّن قلوبهم لقبول التشكيك بالجبلة والفطرة . فهؤلاء يجب التلطف بهم في استمالتهم الى الحق ، وارشادهم الى الاعتقاد الصحيح ، لا في معرض المحاجّة والتعصب ، فان ذلك يزيد في دواعي الضلال ، ويهيج بواعث التمادي والاصرار . . . والمجادلة والمعاندة داء محض لا دواء له ، فليتحرز المتدين منه جهده ، وليترك الحقد والضغينة ، وينظر الى كافة خلق الله بعين الرحمة ، وليستعن بالرفق واللطف في ارشاد من ضلّ . . .

(الاقتصاد : ص ٦–٨)

---

١) هذا رأي من الغزالي غريب ، فان عقلًا لا يفعل فيه البرهان لغلاظته ، كيف يفعل فيه السيف ، فيولّد اقناعًا ، ويوجد ايمانًا ؟ ان السيف قد ينطق اللسان بما لا يؤمن به القلب ، وما هذا من الدين في شيء ، ان هذا الا كذب ورياء !

الاصلح غير واجب

ندّعي انه لا يجب عليه (على الله) رعاية الاصلح لعباده ، بل له ان يفعل ما يشاء ، ويحكم بما يريد ، خلافاً للمعتزلة . . .

انّا نفرض ثلاثة اطفال ، مات احدهم وهو مسلم في الصبا ، وبلغ الآخر واسلم ومات مسلماً بالغاً ، وبلغ الثالث كافراً ومات على الكفر . فان العدل عندهم ان يخلد الكافر البالغ في النار ، وان يكون للبالغ المسلم في الجنة رتبة فوق رتبة الصبي المسلم . فاذا قال الصبي المسلم : يا ربّ ، لمَ حططت رتبتي عن رتبته ؟ فيقول : لانه بلغ فاطاعني ، وانت لم تطعني بالعبادات بعد البلوغ . فيقول : يا رب ، لانك امتّني قبل البلوغ ، فكان صلاحي في ان تمدّني بالحياة حتى ابلغ ، فاطيع ، فانال رتبته ، فلمَ حرمتني هذه الرتبة ابد الابدين ، وكنت قادراً على ان توصلني لها ؟ فلا يكون له جواب الا ان يقول : علمت انك لو بلغت لعصيت وما اطعت ، وتعرضت لعقابي وسخطي ، فرأيت هذه الرتبة النازلة اولى بك ، واصلح لك من العقوبة . فينادي الكافر البالغ من الهاوية ، ويقول : يا رب ، أو ما علمت اني اذا بلغت كفرت ؟ فلو امتّني في الصبا ، وانزلتني في تلك المنزلة النازلة ، لكان احب الي من تخليد النار ، واصلح لي ، فلمَ احييتني ، وكان الموت خيراً لي ؟ فلا يبقى له جواب البتة . . .

ان الاصلح للعباد كلهم ليس بواجب ، ولا هو موجود .

(الاقتصاد في الاعتقاد : ٨٣-٨٤)

المعاد الجسماني

لقد كفّر الغزالي الفلاسفة لانكارهم المعاد الجسماني. واليك بعض ما جاء للغزالي في وصف المعاد، وجلّه في المعاد الجسماني :

تفكّر في اهل الجنة ، وفي وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم ، جالسين على منابر الياقوت الاحمر ، في خيام من اللؤلؤ الرطب الابيض ، فيها بسط من العبقري[1] الاخضر، متكئين على ارائك، منصوبة على اطراف انهار مطّردة بالخمر والعسل ، محفوفة بالغلمان والولدان، مزينة بالحور العين ، من الخيّرات الحسان، كانهن الياقوت والمرجان، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان. يمشين في درجات الجنان ، اذا اختالت احداهن في مشيها ، حمل اعطافها سبعون الفاً من الولدان ، عليها من طرائف الحرير الابيض ما تتحير فيه الابصار مكلّلات بالتيجان ، المرصّعة باللؤلؤ والمرجان . شكِلات ، غَنِجات ، عطرات ، آمنات من الهرم والبؤس ، مقصورات في الخيام، في قصور من الياقوت، بنيت وسط روضات الجنان. قاصرات الطرف ، عِين .

ثم يطاف عليهم وعليهن باكواب واباريق ، وكأس من معين بيضاء، لذة للشاربين. ويطوف عليهم خدام وولدان ، كامثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون .

في مقام امين ، في جنات وعيون، في جنات ونهر ، في مقعد صدق، عند مليك مقتدر ، ينظرون فيها الى وجه الملك الكريم ، وقد اشرقت في وجوههم نضرة النعيم، لا يرهقهم قتر ولا ذلة ، بل عباد مكرّمون، وبانواع التحف من ربهم يُتعاهدون ، فهم فيما اشتهت انفسهم خالدون ، لا يخافون فيها ولا يحزنون .

١) نوع من البسط الفاخرة .

وهم من رَيْبِ المنون آمنون ، فهم فيها يتنعمون ، ويأكلون من اطعمتها ، ويشربون من انهارها لبناً وخمرًا وعسلًا ، في انهار اراضيها من فضة ، وحصباؤها مرجان ، وعلى ارضٍ ترابها مسك اذفر[1] ، ونباتها زَعْفران . ويعطرون من سحاب ، فيها من ماء النِسْرين[2] ، على كثبان الكافور . ويؤتون باكواب — واي اكواب ! — باكواب من فضة ، مرصّعة بالدر والياقوت والمرجان : كوب فيه من الرحيق المختوم ، ممزوج بـه السلسبيل العذب ! كوب يشرق نوره ، من صفاء جوهره ، يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرته ، لم يصنعه آدميّ فيقصّر في تسوية صنعته ، وتحسين صناعته، في كف خادم يحكي ضياء وجهه الشمس في اشراقها ولكن من اين للشمس مثلُ حلاوة صورته، وحسن اصداغه ، وملاحة احداقه؟ . . .

وسئل رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم ، عن قوله : « ومساكن طيّبة في جنات عدن »، قال: قصور من لؤلؤ ، في كل قصر سبعون دارًا من ياقوت احمر ، في كل دار سبعون بيتاً من زمرد اخضر ، في كل بيت سرير ، على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون، على كل فراش زوجة من الحور العين ، في كل بيت سبعون مائدة ، على كل مائـدة سبعون لوناً من الطعام ، في كل بيت سبعون وصيفة ، ويعطى المؤمن في كل غداة ، يعني من القوة ، ما يأتي على ذلك اجمع ! . . .

وقال رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم : ان الرجل من اهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء، واربعة آلاف بكر ، وثمانية آلاف ثيّب ، يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا . . .

قال الله تعالى: « للذين احسنوا الحسنى ، وزيادة ! » . وهذه الزيادة

---

١) اذفر : طيّب الرائحة .

٢) ورد ابيض عطر الرائحة .

هي النظر الى وجه الله تعالى ، وهي اللذة الكبرى ، التي يُنسى فيها نعيم اهل الجنة . . . قال جرير بن عبد الله البجلي : كنا جلوساً عند رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، فرأى القمر ليلة البدر ، فقال : انكم ترون ربكم ، كما ترون هذا القمر ، لا تُضامون في رؤيته ! . . . وليس لسرور اهل الجنة ، عند سعادة اللقاء ، منتهى . بل لا نسبة لشيء من لذات الجنة الى لذة اللقاء . وقد اوجزنا في الكلام هنا ، لما فصلناه في كتاب المحبة والشوق والرضى . فلا ينبغي ان تكون همة العبد من الجنة بشيء ، سوى لقاء المولى ، واما سائر نعيم الجنة ، فانه يشارك فيه البهيمة المسرحة في المرعى[١] !

(الاحياء : ربع المنجيات : كتاب الموت وما بعده)

ايها الولد

ايها الولد : النصيحة سهلة ، والمشكل قبولها ، لانها في مذاق متبعي الهوى مرّة ، اذ المناهي محبوبة في قلوبهم ، وعلى الخصوص لمن كان طالب العلم الرسمي ، ومشتغلاً في فضل النفس ، ومناقب الدنيا ، فانه يحسِب ان العلم ، المجرّد له ، ستكون نجاته وخلاصه فيه ، وانه مستغن عن العمل ، وهذا اعتقاد الفلاسفة . سبحانَ اللهِ العظيم ، لا يعلم هذا المغرور انه حين حصّل العلم ، اذا لم يعمل به تكون الحجة عليه آكد ، كما قال رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم : اشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه . وروي ان الجنيد ، قدّس الله سرّه ، رؤي في المنام بعد موته ، فقيل له : ما الخبر ، يا ابا قاسم ؟ قال : طاحت تلك

---

١) ألا يكاد يعود الغزالي هنا الى رأي الفلاسفة ، الذين كفّرهم ؟ !

العبارات ، وفنيت تلك الاشارات ، وما نفعنا الا ركيعات ركعناها في جوف الليل !

⬬

ايها الولد : كم من ليالٍ احييتَها بتكرار العلم ، ومطالعة الكتب ، وحرّمت على نفسك النوم . لا اعلم ما كان الباعث فيه . ان كان نيل غرض الدنيا ، وجذب حطامها ، وتحصيل مناصبها ، والمباهاة على الاقران والامثال ، فويل الك ثم ويل لك . وان كان قصدك فيه احياء شريعة النبي ، صلّى الله عليه وسلّم ، وتهذيب اخلاقك ، وكسر النفس الامّارة بالسوء فطوبى لك ثم طوبى الك . ولقد صدق من قال شعرًا :

سهر العيون لغير وجهك ضائعٌ وبكاؤهن لغير فقدك باطل

⬬

ايها الولد : عش ما شئت ، فانك ميت . واحببْ ما شئت ، فانك مفارقه واعملْ ما شئت فانك مجزيّ به .

⬬

ايها الولد : العلم بلا عمل جنون ، والعمل بغير علم لا يكون.

واعلم ان العلم لا يبعدك اليوم عن المعاصي، ولا يحملك على الطاعة ، ولن يبعدك غدًا عن نار جهنم . واذا لم تعمل اليوم ، ولم تدارك الايام الماضية ، تقول غدًا يوم القيامة: فارجعنا نعمل صالحًا . فيقال : يا احمق ، انت من هناك تجيء !

⬬

ايها الولد : ينبغي لك ان يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع ، اذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة . وينبغي لك ان لا تغتر بالشطح وطامات الصوفية ، لان سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة ، وقطع شهوة النفس ، وقتل هواها بسيف الرياضة ، لا بالطامات والترهات . . .

واعلم ان بعض مسائلك ، التي سألتني عنها ، لا يستقيم جوابها بالكتابة والقول ، إن تبلغْ تلك الحالة تعرفْ ما هي ، والا فعلمها من المستحيلات ، لانها ذوقية . وكل ما يكون ذوقياً ، لا يستقيم وصفه بالقول ، كحلاوة الحلو ، ومرارة المر ، لا يعرف الا بالذوق ...

واما البعض الذي يستقيم له الجواب ، فقد ذكرناه في احياء العلوم وغيره ونذكر ههنا نبذًا منه ، ونشير اليه فنقول : قد وجب على السالك اربعة امور :

الامر الاول : اعتقاد صحيح ، لا يكون فيه بدعة .

والثاني : توبة نصوح ، لا يرجع بعدها الى الزلة .

والثالث : استرضاء الخصوم ، حتى لا يبقى لاحد عليك حق .

الرابع : تحصيل علم الشريعة ، قدر ما تؤدّى به اوامر الله تعالى ، ثم من علوم الاخرة ما تكون به النجاة ...

٥

ايها الولد : ... ان حاتمًا الاصم كان من اصحاب الشقيق البلخي ، رحمة الله عليهما . فسأله يوماً قال : صاحبتني منذ ثلاثين سنة ، ما حصلت فيها ؟ قال : حصلت ثماني فوائد من العلم ... :

الفائدة الاولى : اني نظرت الى الخلق ، فرأيت لكل منهم محبوباً ومعشوقاً ، يحبه ويعشقه . وبعض ذلك المحبوب يصاحبه الى مرض الموت . وبعضه الى شفير الهاوية . ثم يرجع كله ، ويتركه فريدًا وحيدًا ، ولا يدخل معه في قبره منهم احد . فتفكرت وقلت : افضل محبوب المرء ما يدخل في قبره ، ويؤانسه فيه ، فما وجدته غير الاعمال الصالحة ، فاخذتها محبوباً لي ، لتكون سراجاً لي في قبري ، وتؤانسني فيه ، ولا تتركني فريدًا .

الفائدة الثانية : اني رأيت الخلق يقتدون باهوائهم ، ويبادرون الى

مرادات انفسهم ، فتأملت قوله تعالى : « واما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، فان الجنة هي المأوى » ، وتيقنت ان القرآن حق صادق ، فبادرت الى خلاف نفسي ، وتشمرت بمجاهدتها ، وما متعتها بهواها ، حتى رضيت بطاعة الله ، سبحانه وتعالى ، وانقادت .

الفائدة الثالثة : اني رأيت كل واحد من الناس يسعى في جمع حطام الدنيا ، ثم يمسكه ، قابضاً يده عليه ، فتأملت في قوله تعالى : « ما عندكم ينفد ، وما عند الله باقٍ » ، فبذلت محصولي من الدنيا لوجه الله تعالى ، ففرقته بين المساكين ، ليكون ذخرًا لي عند الله تعالى .

الفائدة الرابعة : اني رأيت بعض الخلق ظنّ شرفه وعزّه في كثرة الاقوام والعشائر ، فاغترّ بهم . وزعم آخرون انه في ثروة الاموال ، وكثرة الاولاد ، فافتخروا بها . وحسب بعضهم الشرف والعز في عصب اموال الناس ، وظلمهم ، وسفك دمائهم . واعتقدت طائفة انه في اتلاف المال واسرافه وتبذيره . وتأملت في قوله تعالى : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ، فاخترت التقوى ...

الفائدة الخامسة : اني رأيت الناس يذم بعضهم بعضاً ، ويغتاب بعضهم بعضاً ، فوجدت ذلك من الحسد في المال والجاه والعلم . فتأملت في قوله تعالى : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا »، فعلمت ان القسمة كانت من الله تعالى في الازل ، فما حسدت احدًا ، ورضيت بقسمة الله تعالى .

الفائدة السادسة : اني رأيت الناس يعادي بعضهم بعضاً ، لغرض وسبب ، فتأملت قوله تعالى : « ان الشيطان لكم عدو ، فاتخذوه عدوًا » ، فعلمت انه لا تجوز عداوة احد غير الشيطان .

الفائدة السابعة : اني رأيت كل احد يسعى بجد ، ويجتهد بمبالغة لطلب القوت والمعاش ، بحيث يقع به في شبهة وحرام ، ويذل نفسه ،

وينقص قدره . فتأملت في قوله تعالى : « وما من دابة في الارض، الا على الله رزقها » ، فعلمت ان رزقي على الله تعالى ، وقد ضمنه ، فاشتغلت بعبادته ، وقطعت طمعي عمن سواه .

الفائدة الثامنة : اني رأيت كل واحد معتمدًا على شيء مخلوق ، بعضهم الى الدينار والدرهم ، وبعضهم الى المال والملك ، وبعضهم الى الحرفة والصناعة ، وبعضهم الى مخلوق مثله . فتأملت في قوله تعالى : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغُ امره ، قد جعل الله لكل شيء قدرًا » ، فتوكلت على الله تعالى ، فهو حسبي ، ونعم الوكيل .

فقال شقيق : وفقك الله تعالى ! اني قد نظرت التوراة ، والانجيل ، والزبور ، والفرقان ، فوجدت الكتب الاربعة تدور على هذه الفوائد الثمانية ، فمن عمل بها ، كان عاملًا بهذه الكتب الاربعة .

ايها الولد : ... انه ينبغي للسالك شيخ مرشد مربٍّ ، ليخرج الاخلاق السيئة منه بتربيته ، ويجعل مكانها خلقًا حسنًا . ومعنى التربية يشبه فعل الفلاّح ، الذي يخرج الشوك ، ويخرج النباتات الاجنبية من بين الزرع ، ليحسن نباته ، ويكمل ريعه ...

ايها الولد : اني انصحك بثمانية اشياء ، اقبلها مني لئلا يكون علمك خصمًا عليك يوم القيامة ، تعمل منها اربعة ، وتدع منها اربعة .

اما اللواتي تدع :

احدها ان لا تناظر احدًا في مسألة ، ما استطعت ، لان فيها آفات كثيرة ، فاثمها اكبر من نفعها ، اذ هي منبع كل خلق ذميم ، كالرياء والحسد والكبر والحقد والعداوة والمباهاة وغيرها . نعم ، لو وقع مسألة بينك

وبين شخص او قوم ، وكانت ارادتك فيها ان تظهر الحق ، ولا يضيع ، جاز البحث ...

والثاني مما تدع هو ان تحذر من ان تكون واعظاً ومذكّرًا ، لان فيه آفة كثيرة ، الا ان تعمل بما تقول اولًا ، ثم تعظ به الناس ...

والثالث مما تدع ان لا تخالط الامراء والسلاطين ، ولا تراهم ، لان رؤيتهم ومجالستهم ومخالطتهم آفة عظيمة . ولو ابتليت بهم ، دع عنك مدحهم وثناءهم ، لان الله تعالى يغضب اذا مُدح الفاسق والظالم . ومن دعا لطول بقائهم ، فقد احب ان يُعصى الله في ارضه .

والرابع مما تدع ان لا تقبل شيئاً من عطاء الامراء وهداياهم ، وان علمت انها من الحلال ، لان الطمع منهم يفسد الدين ، لانه يتولد منه المداهنة ، ومراعاة جانبهم ، والموافقة في ظلمهم ...

واما الاربعة التي ينبغي لك ان تفعلها :

فالاول ان تجعل معاملتك مع الله تعالى ، بحيث لو عامل معك بها عبدك ترضى بها منه ، ولا يضيق خاطرك عليه ، ولا تغضب . والذي لا ترضى لنفسك من عبدك المجازي ، فلا ترضَ ايضاً لله تعالى ، وهو سيدك الحقيقي .

والثاني : كل ما عملت بالناس ، اجعله كما ترضى لنفسك منهم ، لانه لا يكمل ايمان عبد ، حتى يحب لسائر الناس ما يحب لنفسه .

والثالث : اذا قرأت العلم ، او طالعته ، ينبغي ان يكون علمك يصلح قلبك ، ويزكي نفسك ، كما لو علمت ان عمرك ما يبقى غير اسبوع ... ولا يمر على عبد يوم وليلة الا ويمكن ان يكون موته فيهما ...

والرابع : ان لا تجمع من الدنيا اكثر من كفاية سنة .

ايها الولد : اني كتبتُ في هذا الفصل ملتمساتك ، فينبغي لك ان

تعمل بها ، ولا تنساني فيه من ان تذكرني في صالح دعائك ... واقرأ هذا الدعاء في اوقاتك ، خصوصاً اعقاب صلواتك :

اللهم ، اني اسألك من النعمة تمامها ، ومن العصمة دوامها ، ومن الرحمة شمولها ، ومن العافية حصولها ، ومن العيش ارغده ، ومن العمر اسعده ، ومن الاحسان اتمّه ، ومن الانعام اعمّه ، ومن الفضل اعذبه ، ومن اللطف اقربه . اللهم ، كن لنا ولا تكن علينا . اللهم ، اختم بالسعادة آجالنا ، وحقق بالزيادة آمالنا ، واقرن بالعافية غدوّنا وآصالنا ، واجعل الى رحمتك مصيرنا ومآلنا ، واصبب سجال عفوك على ذنوبنا ، ومنّ علينا باصلاح عيوبنا ، واجعل التقوى زادنا ، وفي دينك اجتهادنا ، وعليك توكلنا واعتمادنا اللهم ، ثبتنا على نهج الاستقامة ، واعذنا في الدنيا من موجبات الندامة يوم القيامة ، وخفف عنا ثقل الاوزار ، وارزقنا عيشة الابرار ، واكفنا واصرف عنا شر الاشرار ، واعتق رقابنا ورقاب آبائنا وامهاتنا واخواننا واخواتنا من النار ، برحمتك يا عزيز يا غفّار ، يا كريم يا ستّار ، يا عليم يا جبّار ، يا الله يا الله يا الله ، برحمتك يا ارحم الراحمين.

آداب المتعلم والمعلم

اما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ، ولكن تنظم تفاريقها عشرُ جمل :

الوظيفة الاولى : تقديم طهارة القلب عن رذائل الاخلاق ، ومذموم الاوصاف ، اذ العلم عبادة القلب ، وصلاة السر ، وقربة الباطن الى الله تعالى ...

الوظيفة الثانية : ان يقلّل علائقه من الاشتغال بالدنيا ، ويبعد عن الاهل والوطن ، فان العلائق شاغلة وصارفة ، وما جعل الله لرجل من

قلبين في جوفه. ومهما توزعت الفكرة ، قصرت عن درك الحقائق. ولذلك قيل : العلم لا يعطيك بعضه ، حتى تعطيه كلك...

الوظيفة الثالثة : ان لا يتكبر على العلم ، ولا يتأمر على المعلم، بل يلقي اليه زمام امره بالكلية في كل تفصيل ، ويذعن لنصيحته اذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق . وينبغي ان يتواضع لمعلمه ، ويطلب الثواب والشرف بخدمته...

الوظيفة الرابعة : ان يحترز الخائض في العلم ، في مبدأ الامر ، عن الاصغاء الى اختلاف الناس ، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا او من علوم الآخرة. فان ذلك يدهش عقله ، ويحير ذهنه ، ويفتر رأيه ، ويؤيسه عن الادراك والاطلاع. بل ينبغي ان يتقن اولًا الطريقة الحميدة الواحدة ، المرضية عند استاذه، ثم بعد ذلك يصغي الى المذاهب والشبه. وان لم يكن استاذه مستقلًا باختيار رأي واحد، وانما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها ، فليحذر منه ، فان اضلاله اكثر من ارشاده ، فلا يصلح الاعمى لقود العميان ...

الوظيفة الخامسة : ان لا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة ، ولا نوعاً من انواعه ، الا وينظر فيه نظرًا يطلع به على مقصده وغايته. ثم ان ساعده العمر ، طلب التبحر فيه ، والا اشتغل بالاهم منه، واستوفاه، وتطرف من البقية ، فان العلوم متعاونة ، وبعضها مرتبط ببعض ...

الوظيفة السادسة : ان لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة ، بل يراعي الترتيب ، ويبتدئ بالاهم . فان العمر ، اذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً ، فالحزم ان يأخذ من كل شيء احسنه ، ويكتفي منه بشمه ، ويصرف جمام قوّته في الميسور من علمه الى استكمال العلم ، الذي هو اشرف العلوم ، وهو علم الآخرة ، اعني قسمي المعاملة والمكاشفة. فغاية المعاملة المكاشفة ، وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى.

ولست اعني به الاعتقاد الذي يتلقفه العامي وراثة او تلقفاً ، ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة في تحصين الكلام عن مراوغات الخصوم ، كما هي غاية المتكلم، بل ذلك نوع يقين ، هو ثمرة نور، يقذفه الله تعالى في قلب عبد ، طهّر بالمجاهدة باطنه عن الخبائث ... فكن حريصاً على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين ، ولا يرشدك اليه الا حِرصك في الطلب . وعلى الجملة ، فاشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل ، وهو بحر لا يدرك منتهى غوره ، واقصى درجات البشر فيه رتبة الانبياء ، ثم الاولياء ثم الذين يلونهم...

الوظيفة السابعة: ان لا يخوض في فن ، حتى يستوفي الفن الذي قبله.

الوظيفة الثامنة : ان يعرف السبب ، الذي به يدرك اشرف العلوم. وان ذلك يراد به شيئان ، احدهما شرف الثمرة ، والثاني وثاقة الدليل وقوته. وذلك كعلم الدين وعلم الطب ، فان ثمرة احدهما الحياة الابدية، وثمرة الآخر الحياة الفانية، فيكون علم الدين اشرف. ومثل علم الحساب وعلم الطب ، فان علم الحساب اشرف لوثاقة ادلته وقوتها. وان نسب الحساب الى الطب ، كان الطب اشرف باعتبار ثمرته ، والحساب اشرف باعتبار ادلته ، وملاحظة الثمرة اولى...

الوظيفة التاسعة : ان يكون قصد المتعلم ، في الحال ، تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة ، وفي المآل القرب من الله...

الوظيفة العاشرة: ان يعلم نسبة العلوم الى المقصد ، كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد ، والمهم على غيره...

وظائف المرشد المعلم : ...

الوظيفة الاولى: الشفقة على المتعلمين ، وان يجريهم مجرى بنيه... وانما المعلم هو المفيد للحياة الاخروية الدائمة ، اعني معلم علوم الاخرة ، او علوم الدنيا على قصد الآخرة ، لا على قصد الدنيا . فاما التعليم على

قصد الدنيا فهو هلاك واهلاك ، نعوذ بالله منه. وكما ان حق ابناء الرجل الواحد ان يتحابُوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتوادد...

الوظيفة الثانية : ان يقتدي بصاحب الشرع ، صلوات الله عليه وسلامه ، فلا يطلب على افادة العلم اجرًا ، ولا يقصد به جزاء ولا شكرًا ، بل يعلّم لوجه الله تعالى ، وطلباً للتقرب اليه. ولا يرى لنفسه منة عليهم ، وان كانت المنة لازمة عليهم...

الوظيفة الثالثة : ان لا يدع من نصح المتعلم شيئاً...

الوظيفة الرابعة ، وهي من دقائق صناعة التعليم : ان يزجر المتعلم عن سوء الاخلاق ، بطريق التعريض ما امكن، ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ . فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار...

الوظيفة الخامسة : ان المتكفل ببعض العلوم ينبغي ان لا يقبّح ، في نفس المتعلم ، العلوم التي وراءه ، كمعلم اللغة اذ عادته تقبيح علم الفقه ...

الوظيفة السادسة : ان يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقي اليه ما لا يبلغه عقله ، فينفره...

الوظيفة السابعة : ان المتعلم القاصر ينبغي ان يلقى عليه الجلي اللائق به ، ولا يذكر له ان وراء هذا تدقيقاً ، وهو يدخره عنه. فان ذلك يفتر رغبته في الجلي ، ويشوش عليه قلبه ، ويوهم اليه البخل عنه ، اذ يظن كل احد انه اهل لكل علم دقيق . فما من احد الا وهو راضٍ عن الله سبحانه في كمال عقله ، واشدهم حماقة ، واضعفهم عقلاً، هو افرحهم بكمال عقله...

الوظيفة الثامنة : ان يكون المعلم عاملًا بعلمه ، فلا يكذب قولَه فعلُه . . .

(الاحياء : ١ : ص ٣٦-٤٤)

آفات النكاح وفوائده

وفيه فوائد خمسة : الولد ، وكسر الشهوة ، وتدبير المنزل ، وكثرة العشيرة ، ومجاهدة النفس بالقيام بهنّ .

الفائدة الاولى الولد ، وهو الاصل ، وله وُضع النكاح[1] ، والمقصود ابقاء النسل ، وان لا يخلو العالم عن جنس الانس ، وانما الشهوة خلقت باعثة مستحِثّة . . .

الفائدة الثانية التحصّن عن الشيطان ، وكسر التوقان ، ودفع غوائل الشهوة ، وغضّ البصر . . .

الفائدة الثالثة ترويح النفس ، وايناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة ، اراحة للقلب ، وتقوية له على العبادة . فان النفس ملول ، وهي عن الحق نفور ، لانه على خلاف طبعها ، فلو كلفت المداومة بالاكراه على مايخالفها جمحت وثابت ، واذا رُوّحت باللذات في بعض الاوقات قويت ونشطت . وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة ما يزيل الكرب ، ويروح القلب ، وينبغي ان يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات . . .

الفائدة الرابعة تفريغ القلب عن تدبير المنزل ، والتكفل بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الاواني ، وتهيئة اسباب المعيشة . . .

الفائدة الخامسة مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية ، والقيام بحقوق الاهل ، والصبر على اخلاقهن ، واحتمال الاذى منهن ، والسعي

---

١) النكاح هو الزواج الشرعي .

في اصلاحهن وارشادهن الى طريق الدين ، والاجتهاد في كسب الحلال لاجلهن ، والقيام بتربيته لاولاده . فكل هذه اعمال عظيمة الفضل...

اما آفات النكاح فثلاث :

الاولى ، وهي اقواها ، العجز عن طلب الحلال. فان ذلك لا يتيسر لكل احد ، لا سيا في هذه الاوقات ، مع اضطراب المعايش ، فيكون النكاح سبباً في التوسع للطلب ، والاطعام من الحرام ، وفيه هلاكه وهلاك اهله . والمتعزب في أمن من ذلك ، واما المتزوج ففي الاكثر يدخل في مداخل السوء فيتبع هوى زوجته ، ويبيع آخرته بدنياه...

الآفة الثانية القصور عن القيام بحقهن ، والصبر على اخلاقهن ، واحتمال الاذى منهن. وهذه دون الاولى في العموم ، فان القدرة على هذا ايسر من القدرة على الاولى. وتحسين الخلق مع النساء ، والقيام بحظوظهن اهون من طلب الحلال...

الآفة الثالثة ، وهي دون الاولى والثانية، ان يكون الاهل والولد شاغلًا له عن الله تعالى ، وجاذباً له الى طلب الدنيا ، وحسن تدبير المعيشة للاولاد بكثرة جمع المال، وادخاره لهم، وطلب التفاخر والتكاثر بهم . وكل ما شغل عن الله من اهل ومال فهو مشؤوم على صاحبه . ولست اعني بهذا ان يدعو الى محظور ، فان ذلك مما اندرج تحت الآفة الاولى والثانية ، بل ان يدعوه الى التنعم بالمباح ، بل الى الاغراق في ملاعبة النساء ومؤانستهن ، والامعان في التمتع بهن...

فهذه مجامع الآفات والفوائد . فالحكم على شخص واحد بان الافضل له النكاح او العزوبة مطلقاً قصور عن الاحاطة بمجامع هذه الامور . بل تتخذ هذه الفوائد والآفات معتبرًا ومحكاً ، ويعرض المريد عليه نفسه ، فان انتفت في حقه الآفات ، واجتمعت الفوائد ، بأن كان له مال حلال ، وخلق حسن ، وجدّ في الدين تام لا يشغله النكاح عن

الله ، وهو مع ذلك شاب محتاج الى تسكين الشهوة ، ومنفرد يحتاج الى تدبير المنزل والتحصن بالعشيرة ، فلا يُمارى في ان النكاح افضل له ، مع ما فيه من السعي في تحصيل الولد. فان انتفت الفوائد، واجتمعت الآفات ، فالعزوبة افضل له . وان تقابل الامران، وهو الغالب ، فينبغي ان يوزن بالميزان القسط حظ تلك الفائدة في الزيادة من دينه، وحظ تلك الآفات في النقصان منه ، فاذا غلب على الظن رجحان احدهما حكم به . واظهر الفوائد الولد وتسكين الشهوة ، واظهر الآفات الحاجة الى كسب الحرام ، والاشتغال عن الله .

(الاحياء : ربع العادات : الكتاب الثاني)

معرفة عيوب النفس

اعلم ان الله، عز وجل، اذا اراد بعبد خيرًا، بصره بعيوب نفسه. فمن كانت بصيرته نافذة، لم تخف عليه عيوبه ، فاذا عرف العيوب امكنه العلاج. ولكن اكثر الخلق جاهلون بعيوب انفسهم، يرى احدهم القذى في عين اخيه ، ولا يرى الجذع في عين نفسه. فمن اراد ان يعرف عيوب نفسه ، فله اربعة طرق :

الاول : ان يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس ، مطّلع على خفايا الآفات ، ويحكمه في نفسه ، ويتبع اشارته في مجاهدته . وهذا شأن المريد مع شيخه ، والتلميذ مع استاذه ، فيعرّفه استاذه وشيخه عيوب نفسه ، ويعرفه طريق علاجه. وهذا قد عز في هذا الزمان وجوده.

الثاني : ان يطلب صديقاً صدوقاً ، بصيرًا متديناً ، فينصبه رقيباً على نفسه ، ليلاحظ احواله وافعاله ، فما كره من اخلاقه وافعاله ، وعيوبه الباطنة والظاهرة ، ينبهه عليه . . .

الثالث : ان يستفيد معرفة عيوب نفسه من السنة اعدائه ، فان عين السخط تبدي المساويا. . .

الرابع : ان يخالط الناس ، فكل ما رآه مذموماً فيما بين الخلق ، فليطالب نفسه به ، وينسبها اليه .

(الاحياء : ربع المهلكات : كتاب رياضة النفس)

رياضة المريد

انَّ له شروطاً لا بد من تقديمها في بداية الارادة ، وله معتصم لا بد من التمسك به ، وله حصن لا بد من التحصن به ليأمن من الاعداء القطاع لطريقه .

اما الشروط ، التي لا بد من تقديمها في الارادة ، فهي رفع السدّ والحجاب، الذي بينه وبين الحق. . .والسد بين المريد وبين الحق اربعة : المال ، والجاه ، والتقليد ، والمعصية .

وانما يرفع حجاب المال بخروجه عن ملكه ، حتى لا يبقى له الا قدر الضرورة ، فما دام يبقى له درهم يلتفت اليه قلبه ، فهو مقيد به ، محجوب عن الله عز وجل .

وانما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه ، بالتواضع وايثار الخمول ، والهرب من اسباب الذكر،وتعاطي اعمال تنفر قلوب الخلق عنه

وانما يرتفع حجاب التقليد ، بان يترك التعصب للمذاهب . . . فان غلب عليه التعصب لمعتقده ، ولم يبقَ في نفسه متسع لغيره ، صار ذلك قيدًا له وحجاباً ، اذ ليس من شرط المريد الانتماء الى مذهب معين اصلًا .

واما المعصية فهي حجاب ، ولا يرفعها الا التوبة ، والخروج من المظالم ، وتصميم العزم على ترك العود ، وتحقيق الندم على ما مضى . . .

فاذا قدّم هذه الشروط الاربعة. . . يحتاج الى شيخ واستاذ يقتدي به . . . فاذا وجد مثل هذا المعتصم ، وجب على معتصمه ان يحميه ،

ويعصمه بحصن حصين ، يدفع عنه قواطع الطريق ، وهو اربعة امور : الخَلوة والصمت والجوع والسهر...

واما الجوع فانه ينقص دم القلب ويبيضه ، وفي بياضه نوره ، ويذيب شحم الفؤاد ، وفي ذوبانه رقته ، ورقته مفتاح المكاشفة... وقال عيسى عليه السلام : يا معشر الحواريين ، جوعوا بطونكم ، لعل قلوبكم ترى ربكم...

واما السهر فانه يجلو القلب ويصفيه ، وينوره ، فيضاف ذلك الى الصفاء الذي حصل من الجوع...

واما الصمت فانه تسهله العزلة ، ولكن المعتزل لا يخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرابه وتدبير امره ، فينبغي ان لا يتكلم الا بقدر الضرورة،فان الكلام يشغل القلب،وشره القلوب الى الكلام عظيم...

واما الخلوة ففائدتها دفع الشواغل ، وضبط السمع والبصر ، فانهما دهليز القلب ، والقلب في حكم حوض ، تنصب اليه مياه كريهة كدرة قذرة من انهار الحواس ، ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه ، ومن الطين الحاصل منها ، ليتفجر اصل الحوض، فيخرج منه الماء النظيف الطاهر... وليس يتم ذلك الا بالخلوة في بيت مظلم ، وان لم يكن له مكان مظلم ، فليلفّ رأسه في جيبه ، او يتدثر بكساء او ازار ، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ، ويشاهد جلال الحضرة الربوبية...

فهذه الاربعة جُنة وحصن بها تدفع عنه القواطع ، وتمنع العوارض القاطعة للطريق ، فاذا فعل ذلك ، اشتغل بعده بسلوك الطريق . وانما سلوكه بقطع العقبات ، ولا عقبة على طريق الله تعالى الا صفات القلب، التي سببها الالتفات الى الدنيا...

(الاحياء : ربع المهلكات : كتاب رياضة النفس)

ذم الغنى ومدح الفقر

اعلم ان الناس قد اختلفوا في تفضيل الغني الشاكر على الفقير الصابر، وقد اوردنا ذلك في كتاب الفقر والزهد[1] ، وكشفنا عن تحقيق الحق فيه . ولكنا في هذا الكتاب ندل على ان الفقر افضل واعلى من الغنى على الجملة ، من غير التفات الى تفصيل الاحوال . ونقتصر فيه على حكاية فصل ، ذكره الحرث المحاسبي في بعض كتبه ، في الرد على بعض العلماء من الاغنياء ، حيث احتجّ باغنياء الصحابة ، وبكثرة مال عبد الرحمن بن عوف ، وشبّه نفسه بهم . . .

قال ، بعد كلام له في الرد على علماء السوء : بلغنا ان عيسى ابن مريم عليه السلام قال :

« يا علماء السوء ، تصومون وتصلون وتصدقون ، ولا تفعلون ما تؤمرون ، وتدرّسون ما لا تعلمون ، فيا سوء ما تحكمون . تتوبون بالقول والاماني ، وتعلمون بالهوى ، وما يغني عنكم ان تنقوا جلودكم ، وقلوبكم دنسة . بحق اقول لكم ، لا تكونوا كالمنخل ، يخرج منه الدقيق الطيّب ، وتبقى فيه النخالة . كذلك انتم تخرجون الحكم من افواهكم ، ويبقى الغل في صدوركم . يا عبيد الدنيا ، كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ، ولا تنقطع منها رغبته . بحق اقول لكم ان قلوبكم تبكي من اعمالكم . جعلتم الدنيا تحت السنتكم ، والعمل تحت اقدامكم . بحق اقول لكم ، افسدتم آخرتكم ، فصلاح الدنيا احب اليكم من صلاح الآخرة ، فاي الناس اخسر منكم لو تعلمون . ويلكم حتامَ تصفون الطريق للمدلجين ، وتقيمون في محل

---

١) هو كتاب من ربع المنجيات

المتحيرين ، كأنكم تدعون اهل الدنيا ليتركوها لكم ؟ مهلا ، مهلا! ويلكم ، ماذا يغني عن البيت المظلم ان يوضع السراج فوق ظهره ، وجوفه موحش مظلم . كذلك لا يغني عنكم ان يكون نور العلم بافواهكم ، واجوافكم منه موحشة معطلة. يا عبيد الدنيا ، لا كعبيد اتقياء ، ولا كاحرار كرام ، توشك الدنيا ان تقلعكم عن اصولكم ، فتلقيكم على وجوهكم ، ثم تكبكم على مناخركم ، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ، ثم تدفعكم من خلفكم ، حتى تسلمكم الى الملك الديان عراة فرادى ، فيوقفكم على سوآتكم ، ثم يجزيكم بسوء اعمالكم!».

ثم قال الحرث ، رحمه الله : اخواني ، فهؤلاء علماء السوء ، شياطين الانس ، وفتنة على الناس ، رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها ، وآثروها على الآخرة ، واذلوا الدين للدنيا .

(الاحياء : ربع المهلكات : كتاب ذم حب المال)

الرياء

الرياء طلب المنزلة في قلوب الناس ، بايرائهم خصال الخير . . . والمراءى به كثير ، وتجمعه خمسة اقسام . . . : البدن ، والزيّ ، والقول ، والعمل ، والاتباع والاشياء الخارجة . . .

القسم الاول الرياء في الدين بالبدن . وذلك باظهار النحول ، والصفار ، ليوهم بذلك شدة الاجتهاد ، وعظم الحزن على امر الدين ، وغلبة خوف الآخرة ، وليدل بالنحول على قلة الاكل ، وبالصفار على سهر الليل . . . وكذلك يرائي بتشعيث الشعر ، ليدل به على استغراق الهم بالدين ، وعدم التفرغ لتسريح الشعر . . . ويقرب من هذا خفض الصوت ، واغارة العينين ، وذبول الشفتين ، ليستدل بذلك على انه مواظب على الصوم ،

وان وقار الشرع هو الذي خفض من صوته ، او ضعف الجوع هو الذي ضعَّف من قوته . وعن هذا قال المسيح ، عليه السلام: اذا صام احدكم، فليدهن رأسه ، ويرجّل شعره ، ويكحل عينيه ...

الثاني الرياء بالهيئة والزي . امـا الهيئة فبتشعيث الشعر ، وحلق الشارب، واطراق الرأس في المشي، والهدء في الحركة ، وابقاء اثر السجود على الوجوه ، وغلظ الثياب ، ولبس الصوف ، وتشميرها الى قريب من الساق ، وتقصير الاكمام ، وترك تنظيـف الثوب ، وتركه مخرقاً ... والمراؤون بالزي على طبقات . فمنهم من يطلب المنزلة عند اهل الصلاح باظهار الزهد،فيلبس الثياب المخرقة ، الوسخة ، القصيرة ، الغليظة ،ليرائي بغلظها ووسخها وقصرها وتخرقها انه غير مكترث بالدنيا ، ولو كلف ان يلبس ثوباً وسطاً نظيفاً ، مما كان السلف يلبسه ، لكان عنده بمنزلة الذبح .. وطبقة اخرى يطلبون القبول عند اهل الصلاح ، وعند اهل الدنيا من الملوك والوزراء والتجار ، ... فلذلك يطلبون الاصواف الدقيقة ، والاكسية الرقيقة ، والمرقعات المصبوغة ، والفوط الرفيعة ، فيلبسونها .ولعل قيمة ثوب احدهم قيمة ثوب احد الاغنياء ، ولونه وهيئته لون ثياب العلماء ، فيلتمسون القبول عند الفريقين...

الثالث الرياء بالقول . ورياء اهل الدين بالوعظ والتذكير ، والنطق بالحكمة ، وحفظ الاخبار والآثار ، لاجل الاستعمال في المحاورة ... وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق ، واظهار الغضب للمنكرات، واظهار الاسف على مقارفة الناس للمعاصي ، وتضعيف الصوت في الكلام ، وترقيق الصوت بقراءة القرآن ...

الرابع الرياء بالعمل . كمراآة المصلّي بطول القيام،ومد الظهر،وطول السجود والركوع واطراق الرأس ، وترك الالتفـاتات ، واظهار الهدء

والسكون، وتسوية القدمين واليدين. . .وبالاخبات في المشي عند اللقاء، كارخاء الجفون،وتنكيس الرأس ، والوقار في الكلام، حتى ان المرائي قد يسرع في المشي الى حاجته ، فاذا طلع عليه احد من اهل الدين ، رجع الى الوقار ، واطراق الرأس. . .

الخامس المراآة بالاصحاب ، والزائرين ، والمخالطين. كالذي يتكلف ان يستزير عالماً من العلماء ، ليقال ان فلاناً زار فلاناً ، او عابداً من العباد ، ليقال ان اهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون اليه، او ملكاً من الملوك او عاملاً من عمّال السلطان ، ليقال انهم يتبركون به ، لعظم رتبته في الدين[1]. . .

فهذه مجامع ما يرائي به المراؤون،وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد .

(الاحياء : ربع المهلكات : كتاب ذم الجاه والرياء)

علاج حب الجاه

ان من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق، مشغوفاً بالتودد اليهم ، والمراآة لاجلهم . . . فحب الجاه اذاً من المهلكات ، فيجب علاجه وازالته عن القلب . . . وعلاجه مركّب من علم وعمل .

اما العلم فهو ان يعلم السبب الذي لاجله احب الجاه ، وهو كمال القدرة على اشخاص الناس ، وعلى قلوبهم . وقد بيّنا ان ذلك ، ان صفا وسلم ، فآخره الموت ، فليس هو من الباقيات الصالحات . بل لو

---

١) ان ما يسرده الغزالي من مظاهر الرياء ، هو ايضاً ، في بعضه ، من مظاهر الفضيلة الصحيحة . وانما الفرق في النيّة .

سجد لك كلّ من على بسيط الارض من المشرق الى المغرب ، فالى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له ...

وابصار اكثر الخلق ضعيفة ، مقصورة على العاجلة ، لا يمتد نورها الى مشاهدة العواقب ... فمن هذا حدّه فينبغي ان يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة ، وهو ان يتفكر في الاخطار التي يستهدف لها ارباب الجاه في الدنيا ، فان كل ذي جاه محسود ومقصود بالايذاء ، وخائف على الدوام على جاهه ، ومحترز من ان تتغير منزلته في القلوب ، والقلوب اشد تغيراً من القدر في غليانها ، وهي مترددة بين الاقبال والاعراض ، فكل ما يبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يبنى على امواج البحر ، فانه لا ثبات له . والاشتغال بمراعاة القلوب ، وحفظ الجاه ، ودفع كيد الحساد ، ومنع اذى الاعداء ، كل ذلك غموم عاجلة ، ومكدرة للذة الجاه ...

واما من حيث العمل فاسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة افعال يلام عليها ... ولا يجوز له ان يقدم على محظور لاجل ذلك ، بل له ان يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس .

(الاحياء : ربع المهلكات : كتاب ذم الجاه والرياء)

دواء الحسد

ان الحسد من الامراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى امراض القلوب الا بالعلم والعمل .

والعلم النافع لمرض الحسد هو ان تعرف تحقيقاً ان الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين ، وانه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين ، بل ينتفع به فيهما . ومهما عرفت ذلك عن بصيرة ، ولم تكن عدو نفسك ، وصديق عدوك ، فارقت الحسد لا محالة .

اما كونه ضرراً عليك في الدين فهو انك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده ، وعدله الذي اقامه في ملكه بخفيّ حكمته ، فاستنكرت ذاك ، واستبشعته ، وهذه جناية ...

واما كونه ضرراً عليك في الدنيا فهو انك تتألم بحسدك في الدنيا ، او تتعذب به ، ولا تزال في كدّ وغمّ ، اذ اعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها ، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم ، فتبقى مغموماً محروماً ، متشعب القلب ضيق الصدر، قد نزل بك ما يشتهيه الاعداء الك ، وتشتهيه لاعدائك . فقد كنت تريد المحنة لعدوك ، فتنجزتْ في الحال محنتك وغمك نقدا . ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك ...

واما انه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح ، لان النعمة لا تزول عنه بحسدك ، بل ما قدّره الله تعالى من اقبال ونعمة فلا بدّ ان يدوم الى اجل معلوم ... ولذلك شكا نبي من الانبياء من امرأة ظالمة مستولية على الخلق ، فاوحى الله اليه : فرّ من قدامها حتى تنقضي ايامها ... ومهما لم تزُل النعمة بالحسد ، لم يكن على المحسود ضرر في الدنيا ، ولا يكون عليه اثم في الآخرة . ولعلك تقول : ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدي ! وهذا غاية الجهل ، فانه بلاء تشتهيه اولًا لنفسك ، فانك ايضاً لا تخلو عن عدو يحسدك ، فلو كانت النعمة تزول بالحسد ، لم يبقَ لله تعالى عليك نعمة ، ولا على احد من الخلق ، (ولا نعمة الايمان ايضاً ، لان الكفّار يحسدون المؤمنين على الايمان)... وان اشتهيت ان تزول النعمة عن الخلق بحسدك ، ولا تزول عنك بحسد غيرك ، فهذا غاية الجهل والغباوة ، فان كل واحد من حمقى الحساد ايضاً يشتهي ان يخص بهذه الخاصية ، ولست بأولى من غيرك ...

واما ان المحسود ينتفع به في الدين والدنيا فواضح . اما منفعته في

الدين فهو انه مظلوم من جهتك ، لاسيما اذا اخرجك الحسد الى القول والفعل بالغيبة ، والقدح فيه ، وهتك ستره ، وذكر مساوئه . . . واما منفعته في الدنيا فهو ان اهم اغراض الخلق مساءة الاعداء وغمهم وشقاوتهم وكونهم معذبين مغمومين ، ولا عذاب اشد مما انت فيه من الم الحسد . وغاية اماني اعدائك ان يكونوا في نعمة ، وان تكون في غم وحسرة بسببهم ، وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم . ولذلك لا يشتهي عدوك موتك ، بل يشتهي ان تطول حياتك ، ولكن في عذاب الحسد ، لتنظر الى نعمة الله عليه فينقطع قلبك حسداً ، ولذلك قيل :

لا مات اعداؤك ، بل خلّدوا حتى يروا فيك الذي يكمّد
لا زلت محسوداً على نعمة فانما الكامل من يُحسد!..

...

واما العمل النافع فيه فهو ان يحكم الحسد ، فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغي ان يكلف نفسه نقيضه . فان بعثه الحسد على القدح في محسوده كلّف لسانه المدح له والثناء عليه ، وان حمله على التكبر عليه الزم نفسه التواضع له ، والاعتذار اليه . وان بعثه على كفّ الانعام عليه ، الزم نفسه الزيادة في الانعام عليه . فمها فعل ذلك عن تكلف ، وعرفه المحسود ، طاب قلبه واحبه ، ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فاحبه ، وتولد من ذلك الموافقة التي تقطع مادة الحسد ، لان التواضع والثناء والمدح واظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه ، ويسترقّه ، ويستعطفه ، ويحمله على مقابلة ذلك بالاحسان . . . فهذه هي ادوية الحسد ، وهي نافعة جداً ، الا انها مرة على القلوب جداً . ولكن النفع في الدواء المر !

(ربع المهلكات : الحسد)

التوكل

التوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ... فان ثبت في نفسك ، بكشف او باعتقاد جازم ، انه لا فاعل الا الله ، كما سبق ، واعتقدت مع ذلك تمام العلم ، والقدرة على كفاية العباد ، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد ، وانــه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ، ولا وراء منتهى علمه علم ، ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة ، اتكل لا محالة قلبك عليه وحده ، ولم يلتفت الى غيره بوجه ، ولا الى نفسه وحوله وقوته ، فانه لا حول ولا قوة الا بالله ...

واذا انكشف لك معنى التوكل ، وعلمت الحالة التي سمّيت توكلًا فاعلم ان تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات :

الدرجة الاولى ... ان يكون حاله في حق الله تعالى ، والثقة بكفالته وعنايته ، كحاله في الثقة بالوكيل .

الثانية ، وهي اقوى ، ان يكون حاله مع الله تعالى ، كحال الطفل مع امه . فانه لا يعرف غيرها ، ولا يفزع الى احد سواها ، ولا يعتمد الّاها ، فاذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ، ولم يخلّها ، وان نابه امر في غيبتها ، كان اول سابق الى لسانه : يا امّاه ! ...

الثالثة ، وهي اعلاها ، ان يكون بين يدي الله تعالى ، في حركاته وسكناته ، مثل الميت بين يدي الغاسل ، لا يفارقه الا في انه يرى نفسه ميتاً ، تحركه القدرة الازلية كما تحرك يد الغاسل الميت . وهو الذي قوي يقينه بانه مجرى للحركة والقدرة والارادة والعلم وسائر الصفات ، وان كلًّا يحدث جبراً ، فيكون بائناً عن الانتظار لما يجري عليه . ويفارق الصبي ، فان الصبي يفزع الى امه ، ويصيح ، ويتعلق بذيلها ، ويعدو خلفها . بل هو مثل صبي علم انه ، وان لم يزعق بامه ، فالام تطلبه ، وانه ،

وان لم يتعلق بذيل امه ، فالام تحمله، وان لم يسألها اللبن ، فالام تفاتحه وتسقيه . وهذا المقام في التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ، ثقـة بكرمه وعنايته ، وانه يُعطي ابتداء افضل مما يسأل .

(الاحياء : ربع المنجيات : كتاب التوكل)

محبة الله

ان المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات ، والذروة العليا من الدرجات . فما بعد ادراك المحبة مقام الّا وهو ثمرة من ثمارها ، وتابع من توابعها ، كالشوق والأُنس والرضى واخواتها . ولا قبل المحبة مقام الا وهو مقدمة من مقدماتها ، كالتوبة والصبر والزهد وغيرها .

وسائر المقامات ، ان عز وجودها ، فلم تخلُ القلوب عن الايمان بامكانها . واما محبة الله تعالى فقد عز الايمان بها ، حتى انكر بعض العلماء امكانها ، وقال لا معنى لها الا المواظبة على طاعة الله تعالى . واما حقيقة المحبة فمحال الا مع الجنس والمثال . ولما انكروا المحبة ، انكروا الانس والشوق ولذة المناجاة ، وسائر لوازم الحب وتوابعه . ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الامر . ونحن نذكر . . . بيان شواهد الشرع في المحبة ، ثم بيان حقيقتها واسبابها ، ثم بيان ان لا مستحق للمحبة الا الله تعالى . . .

١ — شواهد الشرع

اعلم ان الامة مجمعة على ان الحب لله تعالى ، ولرسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فرض . وكيف يفرض ما لا وجود له؟ وكيف يفسر الحب بالطاعة ، والطاعة تبع الحب وثمرته، فلا بد وان يتقدم الحب ، ثم بعد ذلك يطيع من احب .

ويدل على اثبات الحب لله تعالى قوله ، عز وجل: «يحبهم ويحبونه»، وقوله تعالى: «والذين آمنوا اشد حباً لله»، وهو دليل على اثبات الحب، واثبات التفاوت فيه . . .

وفي الخبر المشهور ان ابرهيم ، عليه السلام ، قال لملك الموت ، اذ جاءه لقبض روحه: هل رأيت خليلًا يميت خليله؟ فاوحى الله تعالى اليه: هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه؟ فقال: يا ملك الموت ، الآن فاقبض!

ويروى ان عيسى ، عليه السلام ، مرّ بثلاثة نفر، قد نحلت ابدانهم، وتغيرت الوانهم ، فقال: ما الذي بلغ بكم ما ارى ؟ فقالوا: الخوف من النار . فقال: حق على الله ان يؤمّن الخائف. ثم جاوزهم الى ثلاثة اخرين، فاذا هم اشد نحولًا وتغيرًا ، فقال: ما الذي بلغ بكم ما ارى؟ قالوا: الشوق الى الجنة. فقال: حق على الله ان يعطيكم ما ترجون . ثم جاوزهم الى ثلاثة آخرين ، فاذا هم اشد نحولًا وتغيراً ، كأن على وجوههم المرائي من النور ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما ارى ؟ قالوا: نحب الله ، عز وجلّ . فقال : انتم المقرّبون ، انتم المقربون ، انتم المقربون !. . .

٢ – حقيقة المحبة واسبابها

اول ما ينبغي ان يتحقق انه لا يتصور محبة ، الّا بعد معرفة وادراك ، اذ لا يحب الانسان الا ما يعرفه. . .

الاصل الثاني ان الحب ، لما كان تابعاً للادراك والمعرفة ، انقسم لا محالة ، بحسب انقسام المدْرَكات والحواس. فلكل حاسة ادراك لنوع من المدركات، ولكل واحد منها لذة في بعض المدرَكات. . . قال رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم: «حُبّب اليّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء والصلاة، وجعل قرة عيني في الصلاة . » فسمّى الطيب محبوباً ، ومعلوم انه لا حظ للعين والسمع فيه ، بل للشم فقط. وسمّى النساء محبوبات، ولا حظ فيهن

الا للبصر واللمس ، دون الشم والذوق والسمع. وسمّى الصلاة قرة عين، وجعلها ابلغ المحبوبات ، ومعلوم انه ليس تحظى بها الحواس الخمس ، بل حس سادس ، مظنّته القلب ، لا يدركه الا من كان له قلب . ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائمُ الانسان ، فان كان الحب مقصورًا على مدركات الحواس الخمس ، حتى يقال ان الله تعالى لا يُدرك بالحواس ، ولا يُتمثل بالخيال ، فلا يُحَبّ ، فاذًا قد بطلت خاصية الانسان، وما تميز به من الحس السادس، الذي يعبَّر عنه اما بالعقل، او بالنور او بالقلب... فلا ينكر اذًا حب الله تعالى الا من قعد به القصور في درجة البهائم ...

ترجع اسباب الحب الى خمسة اسباب : وهو حب الانسان وجود نفسه ، وكماله وبقاءه؛ وحبه من احسن اليه فيما يرجع الى دوام وجوده، ويعين على بقائه ، ودفع المهلكات عنه ؛ وحبه من كان محسناً في نفسه الى الناس، وان لم يكن محسناً اليه؛ وحبه لكل ما هو جميل في ذاته، سواء كان من الصور الظاهرة او الباطنة ؛ وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفيَّة في الباطن . فلو اجتمعت هذه الاسباب في شخص واحد، تضاعف الحب لا محالة... فان كانت هذه الصفات في اقصى درجات الكمال ، كان الحب لا محال في اعلى الدرجات . فلنبين الآن ان هذه الاسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها الا في حق الله تعالى ، فلا يستحق المحبة بالحقيقة الا الله سبحانه وتعالى.

٣ — لا مستحق للمحبة الا الله

لا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر الا الله تعالى ، ولا مستحق للمحبة سواه. وايضاحه بان نرجع الى الاسباب الخمسة ، التي ذكرناها ، ونبين انها مجتمعة في حق الله تعالى بجملتها، ولا يوجد في غيره الا آحادها، وانها حقيقة في حق الله ، ووجودها في حق غيره وهم وتخيّل...

فاما السبب الاول ، وهو حب الانسان نفسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده ، وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله ، فهذه جبلة كل حي ، ولا يتصور ان ينفك عنها . وهذا يقتضي غاية المحبة لله تعالى ، فان من عرف نفسه ، وعرف ربه ، عرف قطعاً انـــه لا وجود له من ذاته ، وانما وجود ذاته ، ودوام وجوده ، وكمال وجوده ، من الله ، والى الله ، وبالله . . .

والسبب الثاني ، وهو حبه من احسن اليه،. . . يقتضي ان لا يحب الا الله تعالى . فانـــه لو عرف حق المعرفة ، لعلم ان المحسن اليه هو الله تعالى فقط. . .

والسبب الثالث ، وهو حبك المحسن في نفسه ، . . . يقتضي حب الله تعالى ، بل يقتضي ان لا يحب غيره اصلًا ، الا من حيث يتعلق منه بسبب . فان الله هو المحسن الى الكافة ، والمتفضل على جميع اصناف الخلائق . . .

واما السبب الرابع ، وهو حب كل جميل لذات الجمـــال ، لا لحظ يُنال منه وراء ادراك الجمال ، فقد بينا ان ذلك مجبول في الطباع . وان. . . جمال صفات الصديقين ، الذين تحبهم القلوب طبعاً ، ترجع الى ثلاثة امور : احدها علمهم بالله وملائكته. . .والثاني قدرتهم على اصلاح انفسهم واصلاح عباد الله بالارشاد والسياسة . والثالث تنزههم عن الرذائل والخبائث . . . فانسب هذه الصفات الى صفات الله تعالى :

اما العلم فاين علم الاولين والآخرين من علم الله ؟. . .

واما صفة القدرة فهي ايضاً كمال. . .ولا حول ولا قوة الا بالله. . .

واما صفة التنزه عن العيوب والنقائص. . . فلا يتصور كمال التقدس والتنزه الا للواحد الحق. . .

واما السبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاكلة ، لان شبه الشيء

منجذب اليه ، والشكل الى الشكل اميل . . .ولذلك . . .قال (النبي) : « الارواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف» . . .وهذا السبب ايضاً يقتضي حب الله تعالى، لمناسبة باطنة . . .

فهذه هي المعلومة من اسباب الحب ، وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى ، تحقيقاً لا مجازًا ، وفي اعلى الدرجات لا في ادناها .

(الاحياء : ربع المنجيات : كتاب المحبة)

الاخلاص

اعلم ان كل شيء يُتصور ان يشوبه غيره . فاذا صفا عن شوبه وخلص عنه ، سمّي خالصاً . ويسمّى الفعل المصفّى المخلص اخلاصاً . . .ومن كان غرضه محض التقرب الى الله تعالى فهو مخلص . . .

وانما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ، ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر ، اما من الرياء ، او من غيره من حظوظ النفس . ومثال ذلك ان . . . يحج ، ليصح مزاجه بحركة السفر ، او يتخلص من شر يعرض له في بلده ، او ليهرب عن عدو في منزله ، او يتبرم باهله وولده ، او بشغل هو فيه، فاراد ان يستريح منه اياماً . . .او يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال . . .او توضأ ليتنظف او يتبرد، . . او يفعل شيئاً من ذلك ليُعرف بالخير ، ويُذكر به ، ويُنظر اليه بعين الصلاح والوقار . . .

فمها كان باعثه هو التقرب الى الله تعالى ، ولكن انضاف اليه خطرة من هذه الخطرات ، حتى صار العمل اخف عليه بسبب هذه الامور ، فقد خرج عمله عن حد الاخلاص ، وخرج عن ان يكون خالصاً لوجه الله تعالى ، وتطرق اليه الشرك . وقد قال تعالى : انا اغنى الشركاء عن الشركة .

وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا ، تستريح اليه النفس ، ويميل

اليه القلب ، قلّ ام كثر ، اذا تطرق الى العمل ، تكدر به صفوه ، وزال به اخلاصه . والانسان مرتبط في حظوظه ، منغمس في شهواته ، قلما ينفك فعل من افعاله ، وعبادة من عباداته ، عن حظوظ واغراض عاجلة من هذه الاجناس . فلذلك قيل : من سلم له من عمره لحظة واحدة ، خالصة لوجه الله ، نجا ! وذلك لعزّة الاخلاص ، وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب. بل الخالص هو الذي لا باعث عليه الا طلب القرب من الله تعالى ... وهذا لا يتصور الا من محب لله ، مستهتر بالله ، مستغرق الهم بالآخرة، بحيث لم يبقَ لحب الدنيا في قلبه قرار . حتى لا يحب الاكل والشرب ايضاً ، بل تكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة ، من حيث انه ضرورة الجبلة ، فلا يشتهي الطعام لانه طعام ، بل لانه يقوّيه على عبادة الله تعالى... فمثل هذا الشخص لو أكل ، او شرب ، ... كان خالص العمل ، صحيح النية ، في جميع حركاته وسكناته . فلو نام مثلًا حتى يريح نفسه ، ليتقوى على العبادة بعده ، كان نومه عبادة ، وكان له درجة المخلصين فيه ...

وكم من اعمال يتعب الانسان فيها ، ويظن انها خالصة لوجه الله ، ويكون فيها مغرورًا ، لانه لا يرى وجه الآفة فيها . كما حكي عن بعضهم انه قال : « قضيت صلاة ثلاثين سنة ، صليتها في المسجد ، في الصف الاول . لاني تأخرت يوماً لعذر ، فصليت في الصف الثاني ، فاعترتني خجلة من الناس ، حيث رأوني في الصف الثاني . فعرفت ان نظر الناس الي في الصف الاول كان مسرتي ، وسبب استراحة قلبي ، من حيث لا اشعر ! »

(الاحياء : ربع المنجيات : كتاب الاخلاص)

السماع

بعد بحث طويل في اباحة الغناء وتحريمه ، يصل الغزالي الى هذه النتيجة :

ان السماع قد يكون حراماً محضاً ، وقد يكون مباحاً ، وقد يكون مكروهاً، وقد يكون مستحباً . اما الحرام فهو لاكثر الناس من الشبان، ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا ، فلا يحرك السماع منهم الا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة . واما المكروه فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين ، ولكنه يتخذه عادة له في اكثر الاوقات ، على سبيل اللهو . واما المباح فهو لمن لاحظّ له منه الا التلذذ بالصوت الحسن . واما المستحب فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى ، ولم يحرك السماع منه الا الصفات المحمودة .

اما اهم آداب السامع ، في نظر الغزالي ، فهي :

١ — ان يكون مصغياً الى ما يقول القائل ، حاضر القلب ، قليل الالتفات الى الجوانب ، متحرزًا عن النظر الى وجوه المستمعين وما يظهر عليهم من احوال الوجد ، مشتغلاً بنفسه ومراعاة قلبه ، ومراقبة ما يفتح الله تعالى له من رحمته في سرّه ، متحفظاً عن حركة تشوش على اصحابه قلوبهم . بل يكون ساكن الظاهر ، هادئ الاطراف ، متحفظاً عن التنحنح والتثاؤب ، ويجلس مطرقاً رأسه ، كجلوسه في فكر مستغرق لقلبه ، متماسكاً عن التصفيق والرقص وسائر الحركات، على وجه التصنع والتكلّف والمراآة ، ساكتاً عن النطق ، في اثناء القول ، بكل ما عنه بدّ . فان غلبه الوجد ، وحرّكه بغير اختيار، فهو فيه معذور وغير ملوم . ومهما رجع اليه الاختيار ، فليعد الى هدوئه وسكونه ...

٢ — ان لا يقوم ، ولا يرفع صوته بالبكاء ، وهو يقدر على ضبط

نفسه . ولكن ان رقص أو تباكى فهو مباح ، اذا لم يقصد به المراآة، لان التباكي استجلاب للحزن،والرقص سبب في تحريك السرور والنشاط، فكل سرور مباح... واما تمزيق الثياب فلا رخصة فيه الا عند خروج الامر عن الاختيار . ولا يبعد ان يغلب الوجد ، بحيث يمزق ثوبه وهو لا يدري ، لغلبة سكر الوجد عليه، او يدري ولكن يكون كالمضطر الذي لا يقدر على ضبط نفسه . وتكون صورته صورة المكره ، اذ يكون له في الحركة او التمزيق متنفس ، فيضطر اليه اضطرار المريض الى الانين...

٣ — موافقة القوم في القيام ، اذا قام واحد منهم في وجد صادق من غير رياء وتكلف ، او قام باختيار من غير اظهار وجد ، وقامت له الجماعة . فلا بد من الموافقة ، فذلك من آداب الصحبة . وكذلك ان جرت عادة طائفة بتنحية العمامة ، على موافقة صاحب الوجد اذا سقطت عمامته ، او خلع الثياب اذا سقط عنه ثوبه بالتمزيق . فالموافقة في هذه الامور من حسن الصحبة والمعاشرة،اذ المخالفة موحشة،ولكل قوم رسم.

(الاحياء : ربع العادات : الكتاب الثامن)

الوجد

انه عبارة عن حالة يثمرها السماع . وهو وارد حق جديد ، عقيب السماع ، يجده المستمع من نفسه . وتلك الحالة لا تخلو عن قسمين ، فانها اما ان ترجع الى مكاشفات ومشاهدات ، هي من قبيل العلوم والتنبيهات ، واما ان ترجع الى تغيرات واحوال ، ليست من العلوم ، بل هي كالشوق والخوف ، والحزن والقلق والسرور، والاسف والندم، والبسط والقبض . وهذه الاحوال يهيجها السماع ويقويها ، فان ضعف بحيث لم يؤثر في تحريك الظاهر او تسكينه، او تغيير حاله حتى يتحرك

على غير عادته ، او يطرق ، او يسكن عن النظر والنطق والحركة على خلاف عادته ، لم يسمَّ وجدًا . وان ظهر على الظاهر سمي وجدًا ، اما ضعيفاً واما قوياً ، بحسب ظهوره وتغييره للظاهر .

(الاحياء : ربع العادات : الكتاب الثامن)

الالهام والتعلم

اعلم ان العلوم ، التي ليست ضرورية ، وانما تحصل في القلب في بعض الاحوال ، تختلف الحال في حصولها . فتارة تهجم على القلب ، كأنـه القي من حيث لا يدري ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم . فالذي يحصل ، لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل ، يسمّى الهاماً . والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارًا واستبصارًا . . .

فاذا عرفت هذا ، فاعلم ان ميل اهل التصوف الى العلوم الالهامية، دون التعليمية . فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم ، وتحصيل ما صنفه المصنفون ، والبحث عن الاقاويل والادلة المذكورة ، بل قالوا : الطريق تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والاقبال بـكنه الهمة على الله تعالى . ومهما حصل ذلك ، كان الله هو المتولي لقلب عبده، والمتكفل له بتنويره بانوار العلم . واذا تولى الله امر القلب، فاضت عليه الرحمة ، واشرق النور في القلب،وانشرح الصدر، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الامور الالهية. . .

وزعموا ان الطريق في ذلك اولًا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية ، وتفريغ القلب منها ، وبقطع الهمة عن الاهل والمال والولد والوطن ، وعن العلم والولاية والجاه ، بل يصير قلبه الى حالة يستوي فيها وجود

كل شيء وعدمه . ثم يخلو بنفسه في زاوية، مع الاقتصار على الفرائض والرواتب، ويجلس فارغ القلب، مجموع الهم ، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ، ولا بالتأمل في تفسير ، ولا بكتب حديث ولا غيره، بل يجتهد ان لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى. فلا يزال ، بعد جلوسه في الخلوة، قائلاً بلسانه : الله ، الله ، على الدوام، مع حضور القلب ، حتى ينتهي الى حالة يترك تحريك اللسان ، ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه . ثم يصبر عليه الى ان يمحى اثره عن اللسان ، ويصادف قلبه مواظباً على الذكر . ثم يواظب عليه الى ان يمحى عن القلب صورة اللفظ ، وحروفه ، وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجردًا في قلبه ، حاضرًا فيه ، كانه لازم له لا يفارقه...

وعند ذلك ، اذا صدقت ارادته، وصفت همته، وحسنت مواظبته، فلم تجاذبه شهواتـه ، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا ، تلمع لوامع الحق في قلبه..

انه لو فرضنا حوضاً محفورًا في الارض ، احتمل ان يساق اليه الماء من فوقه بانهارٍ تفتح فيه . ويحتمل ان يحفر اسفل الحوض ، ويرفع منه التراب ، الى ان يقرب من مستقر الماء الصافي ، فينفجر الماء من اسفل الحوض . ويكون ذلك الماء اصفى وادوم، وقد يكون اغزر واكثر. فذلك القلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء ، وتكون الحواس الخمس مثل الانهار. وقد يمكن ان تساق العلوم الى القلب بواسطة انهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات ، حتى يمتلئ علماً . ويمكن ان تسدّ هذه الانهار ، بالخلوة والعزلة وغض البصر ، ويعمـد الى عمق القلب بتطهيره ، ورفع طبقات الحجب عنهُ ، حتى تتفجر ينابيع العلم من داخله.

فان قلت : كيف يتفجر العلم من ذات القلب، وهو خالٍ عنه؟ فاعلم

ان هذا من عجائب اسرار القلب،ولا يسمح بذكره في علم المعاملة[1] بل القدر الذي يمكن ذكره ان حقائق الاشياء مسطورة في اللوح المحفوظ، بل في قلوب الملائكة المقربين فكما ان المهندس يصور ابنية الدار في بياض، ثم يخرجها الى الوجود على وفق تلك النسخة، فكذلك فاطر السماوات والارض كتب نسخة العالم من اوله الى اخره فياللوح المحفوظ، ثم اخرجه الى الوجود على وفق تلك النسخة... فكان للعالم اربع درجات في الوجود: وجود في اللوح المحفوظ وهو سابق على وجوده الجسماني، ويتبعه وجوده الحقيقي، ويتبع وجودَه الحقيقي وجوده الخيالي اعني وجود صورته في الخيال، ويتبع وجوده الخيالي وجودُه العقلي اعني وجود صورته في القلب...

فنقول: القلب، قد يتصور ان يحصل فيه حقيقة العالم وصورته، تارة من الحواس، وتارة من اللوح المحفوظ، كما ان العين يتصور ان يحصل فيها صورة الشمس، تارة من النظر اليها، وتارة من النظر الى الماء الذي يقابل الشمس ويحكي صورتها . فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ، رأى الاشياء فيه،وتفجر اليه العلم منه، فاستغنى عنالاقتباس من داخل الحواس، فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الارض . ومهما اقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات، كان ذلك حجاباً له عن مطالعة اللوح المحفوظ، كما ان الماء، اذا اجتمع في الانهار، منع ذلك من التفجر في الارض، وكما ان من نظر الى الماء الذي يحكي صورة الشمس، لا يكون ناظرًا الى نفس الشمس .

(الاحياء : ربع المهلكات : كتاب عجائب القلب)

---

١) قال الغزالي في مقدمة كتاب الاحياء: «ان العلم،الذي يتوجه به الى الاخرة، ينقسم الى علم المعاملة وعلم المكاشفة. واعني بعلم المكاشفة ما يطلب منه كشف المعلوم فقط. واعني بعلم المعاملة ما يطلب منه،مع الكشف،العمل به. والمقصود من هذا الكتاب علم المعاملة فقط، دون علم المكاشفة، التي لا رخصة في ايداعها الكتب!...»

الغزالي والانجيل

في كتب الغزالي كثير من آيات الانجيل ، وفيها اقوال مشابهة لاقوال انجيلية، وفيها اقوال منسوبة الى المسيح غير موجودة في الانجيل. وانّا نثبت لك بعض هذه الاقوال ، ونثبت لك النص الاصيل مقابلها :

١ – آيات متماثلة

قال عيسى المسيح ، صلّى الله عليه وسلّم : اذا كان صوم احدكم ، فليدهن رأسه ولحيته ، ويمسح شفتيه ، لئلا يرى الناس انه صائم ،	اما انت ، متى صمت ، فادهن رأسك ، واغسل وجهك : لا تظهر للناس صيامك ، بل لابيك الذي في الخفاء .
واذا اعطى بيمينه فليخف عن شماله ،	واما انت ، متى تصدّقت ، فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك .
واذا صلّى فليرخ ستر بابه ، فان الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق .	متى صلّيت ادخل مخدعك ، واغلق بابك ، وصلّ الى ابيك الذي في الخفاء ، وابوك الذي يرى الخفايا يكافيك .
(الاحياء : ٣ : ص٣٠٢)	(متى : ٦ : ١٧، ١٨، ٣، ٦)
قال عيسى ، عليه السلام : مثل علماء السوء كمثل شجرة وقعت على فم النهر ، لا هي تشرب الماء ، ولا هي تترك الماء يخلص الى الزرع .	ويلكم ، ايها الكتبة والفريسيون المراؤون ، لانكم تغلقون ملكوت السماوات في وجه الناس ، فلا تدخلون ولا تدعون الراغبين يدخلون .
ومثل علماء السوء مثل قناة الحش ، ظاهرها جص وباطنها نتن ، ومثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام موتى .	ويلكم ، ايها الكتبة والفريسيون المراؤون ، فانكم كالقبور المجصّصة ، ظاهرها رائق ، وباطنها كدس رفات واقذار .
(الاحياء : ١ : ص٤٥)	(متى : ٢٣ : ١٣، ٢٧)

قال المسيح عليه السلام : طوبى للمتواضعين في الدنيا هم اصحاب المنابر يوم القيامة ،

طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا ، هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة ،

طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا ، هم الذين ينظرون الى الله تعالى يوم القيامة

(الاحياء : ٣ : ٢٢٧)

ورأيت في الانجيل : قال عيسى ابن مريم ، عليه السلام : لقد قيل لكم ، من قبل ، ان السن بالسن ، والانف بالانف. وانا اقول لكم : لا تقاوموا الشر بالشر ، بل من ضرب خدك الايمن فحوّل اليه الخد الايسر ، ومَن اخذ رداءك فاعطه ازارك ، ومن سخرك لتسير ميلاً ، فسر معه ميلين .

(الاحياء : ٤ : ٥٢)

قال عيسى ، عليه السلام : لا تتخذوا الدنيا رباً ، فتتخذكم عبيداً . اكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه ، فان صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآخذ ، وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآخذ .

(الاحياء : ٣ : ١٣٩)

طوبى للمساكين بالروح ، فان لهم ملكوت السماوات ،

طوبى للودعـــاء ، فانهم يرثون الارض ،

طوبى للانقياء القلوب فـــانهم يعاينون الله .

(متى : ٥ : ٣، ٤، ٨)

سمعتم انه قيل : عين بعين ، وسن بسن. وانا اقول لكم : لا تقاوموا الشرير ! من لطمك على خدك الايمن ، ادر له الاخر ! ومن ادّعى قميصك ، اعطه مطرفك ! ومن سخرك ميلاً ، سر معه ميلين !

(متى : ٥ : ٣٨–٤١)

لا تكنزوا لكم كنوزاً على الارض ، حيث ينخر السوس والدود ، وحيث ينقب السارقون فيسرقون . بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء ، حيث لا ينخر سوس ودود ، وحيث لا ينقب سارقون فيسرقون ، لان قلبك حيث كنزك .

(متى : ٦ : ١٩–٢١)

قال عيسى عليه السلام : لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار في اناء واحد .

(الاحياء : ٣ : ١٤٠)

لا يقدر احد ان يخدم ربّين : انه اما ان يبغض الواحد ويحب الآخر ، واما ان يلازم الواحد ويهمل الآخر . لا تقدرون ان تخدموا الله والمال .

(متى ٦ : ٢٤)

قال عيسى :

انظروا الى الطير لا تزرع ، ولا تحصد ، ولا تدخر ، والله تعالى يرزقها يوماً بيوم . فان قلتم : نحن اكبر بطوناً ، فانظروا الى الانعام كيف قيض الله تعالى لهـا هذا الخلق للرزق .

(الاحياء : ٤ : ١٩٠)

انظروا الى طيور السماء : انها لا تزرع ، ولا تحصد ، ولا تدّخر ، وابوكم السماوي يقوتها . الستم افضل منها بكثير ؟ . . . تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو : انها لا تتعب ، ولا تغزل . ومع ذلك سليمان نفسه ، في كل مجده ، ما اكتسى كواحدة منها .

(متى ٦ : ٢٦،٢٨،٢٩)

٢ – اقوال منسوبة للمسيح ، وليست له :

– كم من جسد صحيح ، ووجه صبيح ، ولسان فصيح ، غدا بين اطباق النار يصيح . (الاحياء : ٤ : ٢٨٣)

– من الذي يبني على موج البحر دارًا ؟ تلكم الدنيا ، فلا تتخذوها قرارًا . (الاحياء : ٣ : ١٤١)

– يا معشر الحواريين ، جوّعوا بطونكم ، لعل قلوبكم ترى ربكم. (الاحياء : ٣ : ١٥٦)

– لا تنظروا الى اموال اهل الدنيا ، فان بريق اموالهم يذهب بنور ايمانكم . (الاحياء : ٣ : ١٤٤)

– مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً ، ازداد عطشاً ، حتى يقتله . (الاحياء : ٣ : ١٦٤)

•

– صحب رجل عيسى ابن مريم ، عليه السلام، فقال : اكون معك واصحبك . فانطلقا ، فانتهيا الى شط نهر ، فجلسا يتغديان ، ومعهما ثلاثة ارغفة ، فاكلا رغيفين ، وبقي رغيف ثالث . فقام عيسى ، عليه السلام ، الى النهر فشرب ، ثم رجع ، فلم يجد الرغيف ، فقال للرجل : من اخذ الرغيف؟ فقال : لا ادري . (قال) فانطلق ومعه صاحبه ، فرأى ظبية ، ومعها خشفان لها . . .فدعا احدهما ، فاتاه ، فذبحه ، فاشتوى منه، فاكل هو وذاك الرجل . ثم قال للخشف : قم باذن الله ! فقام . فقال للرجل : اسألك بالذي اراك هذه الآية : من اخذ الرغيف ؟ فقال : لا ادري . فانتهيا الى مغارة ، فجلسا ، فاخذ عيسى ، عليه السلام ، يجمع تراباً وكثيباً ، ثم قال : كن ذهباً باذن الله تعالى ! فصار ذهباً . فقسمه ثلاثة اثلاث ثم قال : ثلث لي ، وثلث لك ، وثلث لمن اخذ الرغيف . فقال : انا الذي اخذت الرغيف . فقال : كله لك . وفارقه عيسى ، عليه السلام. (الاحياء : ٣ : ١٨٨)

نستغفر الله

ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلّت به القـدم ، او طغى به القلم ، في كتابنا هذا[1] ، وفي سائر كتبنا .

ونستغفره من اقوالنا ، التي لا توافقها اعمالنا .

ونستغفره مما ادّعيناه ، واظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى، مع التقصير فيه .

ونستغفره من كل علم وعمل،قصدنا به وجهه الكريم، ثم خالطه غيره.

ونستغفره من كل وعد وعدناه به من انفسنا ، ثم قصّرنا في الوفاء به.

ونستغفره من كل نعمة انعم بها علينا ، فاستعملناها في معصيته

ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص ، وتقصير مقصر، كنا متصفين به .

ونستغفره من كل خطرة دعتنا الى تصنّع وتكلّف ، تزيّنا للناس، في كتاب سطّرناه ، او كلام نظمناه ، او علم افدناه او استفدناه .

(الاحياء : في صفحات الختام)

---

١) كتاب الاحياء

فلاسفة العرب

سلسلة دراسات ومختارات

ظهر منها :

١ — ابن الفارض (طبعة ثالثة)
٢ — ابو العلاء المعري (طبعة ثالثة)
٣ — ابن خلدون (طبعة ثالثة)
٤ — الغزالي : في جزئين (طبعة ثالثة)
٥ — ابن طفيل (طبعة ثانية)
٦ — ابن رشد : في جزئين (طبعة ثانية)
٧ اخوان الصفاء (طبعة ثانية)
٨ — الكندي
٩ — الفارابي : في جزئين
١٠ — ابن سينا : في جزئين

للمؤلف ايضا :

— اصول الفلسفة العربية
— قربان الاغاني : معرّب عن طاغور : نفد
— طيور شاردة : معرّب عن طاغور

تم طبع هذا الكتاب في الخامس
عشر من شهر تموز سنة ١٩٦٦

٦٦/٧/١٥-٣-٧٦١٣

منشورات المطبعة الكاثوليكيّة - بيروت

توزيع المكتبة الشرقيّة - ساحة النجمة - بيروت

١٠٠ غ.